القسم الثالث

دراسات تطبيقيّة

تمهيد

الآن وقد انتهينا من عرض هذه البحوث النظرية المتعلقة بكلٍّ من تاريخ القرآن وعلومه، ومنهج القرآن وأسلوبه؛ نستعيد صورة ذلك كله في نماذج من النصوص القرآنية، نأخذها من مختلف الموضوعات والسور، ونشرحها شرحاً يجلي لنا حقيقة كل ما ذكرناه.

وعملنا الأخير هذا، هو المقصود من كل ما أسلفنا الحديث عنه، فليس يكفي أن تعي الذاكرة مسائل شتى من بحوث علوم القرآن وآدابه، مع البعد عن فهم النصوص القرآنية ذاتها، فضلاً عن الترطن والتكسر في قراءتها.

ومن هنا تعلم أن الذي هو أهم من معرفة معاني النصوص القرآنية، معرفة تلاوتها وإتقان أدائها. وليس في الأمور المستهجنة والمستقبحة شيء أهجن وأقبح من منظر إنسان يزعم أنه أديب يعلم العربية وآدابها، ومع ذلك فهو يدير بين فكّيه لساناً أعجمياً لدى قراءة القرآن، لا يضبط أصله تلاوة ولا يتقن وصفه ترتيلاً وأداءً!..

وما رأيت شيئاً أبعث للغثيان في النفس من مظهر ذاك الذي يقف من وراء المذياع فيصطنع الجلال والضخامة العربية في صوته، فإذا ما أراد أن يقرأ آية من القرآن، التوى عليه لسانه وراح يتعثر في تلاوتها العثرات المضحكة المتوالية!..

إنني أهيب بإخواني الذين يهتمون بدراسة العربية وآدابها، أن يبذلوا أقصى ما لديهم من جهود في سبيل التخلّص والانعتاق من الرطانة اللغوية

العالقة بألسنة كثيرين منهم، وهم أولئك الذين لم يتوفروا على الإكثار من تلاوة القرآن في عهد الصبا، حتى تَصْقُل بذلك ألسنتهم وتنطبع بالطابع العربي نطقاً وأداءاً. وإلا فإن كل جهودهم الأخرى تظل مشوهة ناقصة معيبة.

وبعد فقد اخترنا خمسة نصوص من الكتاب المبين للدراسة التطبيقية، وأردنا أن يكون كلٌّ منها نموذجاً لموضوع معين من الموضوعات القرآنية. فاخترنا نصّاً في (الإلهيات) وآخر في (الوصف)، وثالثاً في (المبادىء والإنسانيات) ورابعاً في (القصص) وخامساً في (الحجاج والنقاش) وعليك أن تعكف بعد ذلك على مختلف كتب التفسير القديمة والحديثة لتواصل السير ولتتم دراستك التطبيقية لكتاب الله كله، والله من وراء القصد وهو نعم المولى ونعم النصير.

* * *

في الإلهيّات

(من سورة الرعد، من آية ٨: إلى آية ١٤)

قال الله عزّ وجلّ: ﴿ اللَّهُ يَعلمُ ما تحمِلُ كلُّ أُنثى وما تغيضُ الأرحامُ وما تَزدادُ وكلُّ شيء عندَه بمقدار. عالمُ الغَيْبِ والشَّهادة الكبيرُ المتعالْ. سواءٌ منكمْ منْ أسرَّ القوْلَ ومنْ جَهَرَ به ومنْ هو مُسْتَخْفٍ بالليلِ وساربٌ بالنهار. له مُعقِّباتٌ من بين يديه ومِنْ خَلْفِهِ يحفظُونَه منْ أمرِ الله إنَّ الله لا يُغيِّرُ ما بقَومٍ حتى يغيروا ما بأنْفُسهم وإذا أرادَ اللَّهُ بقوم سُوءاً فلا مَرَدَّ له وما لهُم من دُونه من وَال. هو الذي يُريكُم البَرْق خوفاً وطمعاً وينشىءُ السحابَ الثقالْ. ويُسَبِّحُ الرعدُ بحمده والملائكةُ مِنْ خيفَته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهُمْ يجادلون في الله وهوَ شديد المِحال. له دعْوةُ الحق والذين يدْعون من دُونه لا يسْتجيبُون لهم بشيء إلا كباسطِ كفيْه إلى الماء ليَبْلُغَ فاه وما هو ببَالغِه وما دُعاءُ الكافرين إلا في ضَلال ﴾.

تعريف عام بالآيات:

هذه الآيات تأتي بعد قوله تعالى متحدّثاً عن الكافرين: ﴿ وإن تعجب فعجبٌ قولهم أإذا كنّا تراباً أإنا لفي خلق جديد! ﴾ فهي ردٌّ على تعجبهم من أن يبعثوا مرة أخرى إلى الحياة بعد أن تفتتت أجزاء جسومهم في طوايا التراب؛ والآيات تردّ على عجبهم وتستنكره من خلال عرض صفتين من أهم صفات الألوهية في داته سبحانه وتعالى.

الصفة الأولى: إنه مطّلع على دقائق الأشياء كلها لا تخفى عليه منها خافية مهما صغرت وتضاءلت، ومهما اختفت من خلف الغياهب والحجب،

ومنها ذرّات جسوم الناس بعد ضياعها في بطن الأرض أو في جوف البحار.

الصفة الثانية: قدرته الباهرة وسطوته القاهرة، اللتان بهما دخل الكون كله تحت سلطانه. فغيم العجب من أن يُعاد الناس إلى خلق جديد بعد موتهم، وقد أخبر بذلك من خلقهم أول مرة، ومن يعلم أين تذهب كل ذرّة من جسومهم ومن كان الكون كله داخلاً تحت نطاق قدرته وسلطانه.

شرح الآيات:

* تبدأ الآية الأولى ببيان أن الله عزّ وجلّ لا تخفى عليه خافية، وأنه يرى ويعلم كل غيب مجهول وكل ضائع مستور. فيجسّد حقائق الغيب في أبرز نموذج له لا يزال الإنسان يرى فيه أول مثال للمجهول الذي لا ولن يطوله علم الإنسان واطّلاعه، وهو تخلق المولود في رحم الأنثى بدءاً من أول مرحلة فيه إلى آخرها؛ ثم يثبت البيان القرآني أن الله وحده المطّلع على هذا الغيب بأمره وحقيقته. وذلك كناية عن أن الله عزّ وجلّ مطّلع على كل غيب وخافية. إذ كان غيب ما في الأرحام أبرز نموذج لها.

ولك في تقرير هذا المعنى أن تعتبر «ما» المتكررة في الآية موصولة ومصدرية؛ ولا ريب أن المصدرية أبلغ في الدلالة. والمهم أن تتأمل الشمول الذي يتجلى في قوله: ﴿ كل أنثى ﴾: شمول بواسطة الأداة، وشمول في تنكير الأنثى، ثم أن تتأمل الصورة التي ترسمها في الذهن جملة ﴿ وما تغيض الأرحام وما تزداد ﴾. والغيض هو النقصان، يأتي فعله لازماً ومتعدياً. تقول: غاض ماء البئر وغضْت من مائه، فالله يعلم كل ما ينقصه الرحم أو يزيده في جثة المخلوق أو في مدة حمله له. وهو معنى واسع دلّت عليه الآية كما ترى بجملة صغيرة ذات دلالة تصويرية معينة.

ولكن هل الأمر في هذا بالنسبة لله عزّ وجلّ مجرد علم واطّلاع؟ يجيب آخر الآية على هذا السؤال الذي يثيره أوفا بقوله عزّ وجلّ: وكل شيء عنده بمقدار. فليس ما قد يتخلق في الرحم من شتى المخلوقات، وليس ما قد يعتريه من غيض أو فيض في الجثة أو الزمان ـ ليس شيءٌ من ذلك مظهراً لمصادفة أو اضطراب أو تحوّل ذاتي كما يتفق له؛ بل كل ذلك إنما يتم وفق نظام شامل دقيق

وطبق إرادة إلهية جازمة. وانظر كيف عبّر البيان القرآني عن هذا بقانون إلهي شامل يعمّ شأن الخلق والكون كله، لكي تفهم أن تقلب حال المخلوق في الرحم ليس مردّه إلا إلى قانون تنظيمي للكون كله.

* ثم تأتي الآية الثانية لتضع القاعدة العامة: عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال.

غيب وشهادة: مبالغة عن غائب ومشاهد، فالأول منها ما لا يقع تحت إدراك شيء من الحواس، والثاني ما يخضع لحاسّة منها. وإليهما تنقسم موجودات الكون كله. فمن أنباك بأنه لا يؤمن إلا بما يقع تحت حسّه فاعلم أنه لا يؤمن إلا بشطر من الموجودات.

غير أن الإنسان لانحباس كيانه ضمن سلطان حواس معينة محدودة لا يدرك مباشرة من الموجودات إلا ما تبصره به هذه الحواس. والله وحده هو الذي يستوي في علمه الغائب والمشاهد.

وأنت تبصر كيف أن الآية جاءت خبراً لمبتدأ محذوف، اقتضى حذفَه التهويل والتعظيم، إذ الآية الأولى من شأنها أن تملأ فكر القارىء المتدبر بعظمة الله تعالى ومظهر ربوبيته، فالمبتدأ ماثل في الذهن لم يغب عن الخاطر والبال، وتأتي الآية الثانية خبراً جديداً يؤكد ما استقر في الذهن من عظمة الإله جلّ جلاله.

* أما الآية الثالثة، فتجسد كلاً من الغيب والشهادة في مثالين، وتكشف للمتأمل كيف أن المثالين والحالين مستويان في علم الله واطّلاعه: ﴿ سواءٌ منكم من أسرَّ القول ومن جهر به، ومن هو مستخفٍ بالليل وساربٌ بالنهار ﴾. فالمثالان الأولان، ما تسرّه من القول في نفسك وما تجهر به بلسانك؛ إن الأمرين والحالين سواء في علم الله عزّ وجلّ، إنه يسمع خلجات نفسك كما يسمع صوت كلامك. والمثالان الآخران: ذاك الذي أخفى نفسه في مكانٍ مستور ضمن ستر آخر من ظلام الليل، وذاك الذي يسير بارزاً في طريق مكشوف تحت وضح النهار، فليس بينهما من فرق إلا في حساب المخلوقات أما الله عزّ وجلّ فكلاهما في علمه سواء.

وتأمل في الطريقة التصويرية الدقيقة التي تعبّر بها الآية! مستخف بالليل، أدخل الهمزة والسين على اسم الفاعل ليصوِّر لك شدة الطلب والبحث عن وسائل الاختباء والاختفاء المختلفة، فضلاً عن أن الليل بطبيعته ساتر ثم: سارب بالنهار، كلمة تصور لك الشيء إذ يسرب على وجه الأرض بارزاً، فأنت تقول: سرب الماء، أي سرى في سجيته على وجه الأرض متشعباً يبرق ويلمع. والكلمة، زيادة على ما فيها من جمال التعبير تصوِّر لك شدة وضوح هذا الإنسان وظهوره مقابل شدة اختفاء ذلك الآخر واستتاره، تقريراً لتساويهما في إحاطة الله وعلمه.

* أما الآية الرابعة فتأتي تأكيداً لما تضمنته الآية التي قبلها. فهي توضح أن الله عزّ وجلّ ليس مطّلعاً فقط على الغيب والشهادة، بل إن له ملائكة حَفَظَة يتعاقبون على هذا المختبىء في تلافيف الظلام والسارب في وضح النهار، من قبل الله عزّ وجلّ وبأمره، يحيطون به رعاية وحفظاً ويحصون أفعاله وأقواله كتابة وتسجيلاً. فهذا هو معنى قوله عزّ وجلّ: ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾. فالضمير في له عائد إلى الله عزّ وجلّ، والمعقبات صفة للملائكة المحذوفة وهو جمع معقبة، ومعقبة جمع مقعب، فالكلمة جمع الجمع، والضمير في يديه عائد إلى الإنسان المفهوم من الآية السابقة، والجار والمجرور في: من أمر الله متعلق بيحفظونه على أن من للسببية، أي يحفظونه بسبب أمر الله لهم بذلك.

ومع سياق الحديث عن رعاية الله للإنسان وحفظه له في غدوّه ورواحه، تذكر الآية قاعدة جرت عليها سنّة الله في الكون: إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. أي إن الله عزّ وجلّ لا يغيّر ما تلبَّس بقوم من النعمة وما قد حفّ بهم من الرعاية التي وصفها، حتى يغيروا ما قد استقر في نفوسهم من فطرة الاستقامة على الحق، التي فطر الله الناس عليها، فيجنحوا إلى نقائضها من الآثام والشرور. وإذا تأملت في صياغة هذه الجملة ودقة سبكها ووجيز ألفاظها مع شمول المعنى واتساعه رأيت من ذلك عجباً لا ينتهي إلا عندما تتذكر أنه بيان الله وكلامه المعجز.

ولما كانت هذه القاعدة تحمل في طيّها الوعيد والإنذار إلى جانب ما تحمله من الوعد والتبشير، أعقب ذلك بما يؤكد هذه الحقيقة من بيان مدى قدرة الله تعالى التي لا تغلب ولا تقهر، فقال: ﴿ وإذا أرد الله بقوم سوءاً فلا مردَّ له وما لهم من دونه من وال ﴾. أي إنهم إذا غيّروا ما بأنفسهم من الخير واستبدلوا به الانحراف والشر، فأراد الله عزّ وجلّ بهم سوءاً من أجل ذلك، فلا رادَّ لقضائه وحكمه وليس لهم غيره من مفرّ وملاذ. فليفرّوا إلى الله في عبودية وضراعة وليصلحوا ما أفسدوه من نفوسهم إن أرادوا أن يكشف عنهم السوء والبلاء.

ومع إثبات هذه الحقيقة، تتهيأ المناسبة للانتقال من الحديث عن الصفة الأولى من صفتي الألوهية التي تعرضها هذه الآيات، وهي صفة ﴿ اطّلاعه على كل خافية وغيب ﴾ إلى الحديث عن الصفة الثانية وهي ﴿ عظيم قدرة الله تعالى وباهر سلطانه ﴾ فتأتي الآيات التالية مشتملة على أمور فيها دلائل على قدرة الله تعالى وعظيم تدبيره، أمور فيها مظاهر من النعم والإحسان إلى جانب ما فيها من مظاهر القهر والتخويف. وهي واقعة موقع التأكيد لما تضمنه قوله تعالى: إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، من الوعد والإيعاد، والتخويف والإطماع.

● وأول أمر من هذه الأمور الدّالة على قدرة الله تعالى، آيتان كونيتان لا تزالان تنبّهان إلى قدرة الله تعالى وباهر حكته، هما الرعد والبرق: هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً. وينشىء السحاب الثقال.

لم يعبّر بالاسم الظاهر، كي لا ينفصل الكلام عن سابقه، ولكي يستجمع الضمير: «هو» في الذهن جميع الصفات التي سبق ذكرها في الآيات الماضية، فيضيف إليها مظاهر أخرى من باهر القدرة وجليل التدبير. وقال: يُريكم البرق؛ هكذا: يريكم.. لتصور لك الجملة بل الكلمة لمعة البرق الخاطف أمام عينيك، حتى إذا قامت الصورة في خيالك، أضافت الآية، منبّهة، أن ذلك إنما يكون تخويفاً مما قد يعقبه من الصواعق المحرقة أو الأمطار المتلفة، وتطميعاً لما قد يبشّر به من الغيث المفيد. فخوفاً وطمعاً منصوبان على أن كلاً منهما مفعول لأجله، إما على تقدير: إرادة الخوف والطمع، أو على تقدير: تخويفاً وتطميعاً،

ولعلّ هذا أقرب ما قد يقال من وجوه الإعراب في هاتين الكلمتين.

وينشىء السحاب الثقال: يخلقه من لا شيء، فينسحب في الجوِّ يتألف ويتراكم وقد أثقله ما يحمله إلى الأرض من المياه. وأنت تعلم أن ليس في أصل السحاب ثقل ولا خفّة وإنما هو إخراج للمعنى الاعتباري في مظهر متخيل محسوس.

* أما الآية التي بعدها، فتتألف من عدة جمل، كلٌّ واحدة منها تُحضِر في الذهن صورة محسوسة مجسمة لجانب من مظاهر ألوهية الله تعالى في آفاق الكون:

ويسبّح الرعد بحمده: جملة فعلية فعلها مضارع مصوغ للحال والاستمرار، بياناً للدوام واستحضاراً للصورة في الذهن؛ وأسند التسبيح إلى الرعد، ليوضح أن زمجرة الرعد من خلال السحاب مهما ترجمت إلى لغة مفهومة فإنها إنما تعني تنزيه الله عمّا يلغو به الجاحدون المبطلون، وتعلن عن وجود الخالق العظيم قهّار السماوات والأرض.

والملائكة من خيفته: صوَّر كيف أنه يتألف تسبيح الرعد المزمجر مع تسبيح الملائكة الخاشعين لعظمة الله وسلطانه، ليتجلّى فيما بينهما غرور الإنسان الجاهل إذ يظلم نفسه فيمشي مكبّاً على وجهه بين سمع هذا الكون وبصره غافلاً عن كل هذا الذي يحيط به.

ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء: جملة فعلية ثالثة، أُريد منها كما قلنا استحضار الصورة في الذهن. والصواعق جمع صاعقة، وهي تلك النار المحرقة التي تنقضّ في وقع وصوت شديدين. فإذا ما أرسلها الله عزّ وجلّ إلى الأرض أهلك الله بها من يشاء. وإنها لمظهر مخيف لعظمة الله تعالى وقوة سطوته مهما جمعت حول هذه الظاهرة من التعليلات الطبيعية والعلمية، فإن كل مظاهر البطش والجبروت الأخرى خاضعة أيضاً لسلسلة العلل والأسباب الجعلية المخلوقة.

وهم يجادلون في الله: جملة أخرى صدِّرت بواو الحال، فهي حال من

الكفرة الذين تضمنهم الخطاب في قوله: هو الذي يريكم... والجملة تصور لك عجيب أمر هؤلاء الذين يرون آيات الله كلها ويبصرون دلائل وجوده ووحدانيته، فيظلّون مع ذلك يجادلون في شأن الله: وجودِه ووحدانيته، وقضية البعث من بعد الموت!!.

وإنما التفت الخطاب عنهم في هذه الجملة إلى الغيبة، بعد أن كان الكلام موجّهاً إليهم مع سائر الناس في الجمل السابقة ـ إيذاناً بإسقاطهم عن درجة الخطاب وإعراضاً عن لغوهم وباطلهم الذي يخوضون فيه. وأسند جدالهم إلى الذات الإلٰهية مع أن الجدال لا يكون في الشيء نفسه وإنما في حكم متعلق به، ليشمل كل ما يجادلون فيه وينكرونه مما تنزل في البيان الإلٰهي المبين.

وجاءت الجملة الأخيرة: وهو شديد المحال، على وزن التي قبلها، فهي أيضاً حال. ولكنها حال من الله عزّ وجلّ، نُزِّلت من التي قبلها منزلة المقابلة، لتكون بذلك أقوى تعبير عن الإنذار والوعيد، لأولئك الذين لم تنفعهم الآيات والبراهين والدلائل الكونية المختلفة الناطقة بوجود الله تعالى ووحدانيته، فظلوا مع ذلك يجادلون عن غيّهم وباطلهم؛ فلئن كان حالهم، وهم يرون هذه الأدلة كلها، هي الجدال في الله، فإن حال الله عزّ وجلّ، مع كل ما بثّ في الكون من هذه الأدلة، أنه شديد المحال؛ أي شديد القوة، وشديد الأخذ في غفلة وعلى حين غرّة، وشديد القدرة على مكايدة الظالمين بإبطال كيدهم وأخذهم بباطلهم.

* وآخر ما تعرضه الآيات من الصفات الدالّة على عظيم قدرة الله تعالى وألوهيته أنه وحده عزّ وجلّ، صاحب الدعوة الثابتة الواقعة في محلها المجابة عند وقوعها، أي إنه وحده الذي إذا دُعي سمع وأجاب الدعوة. فإضافة الدعوة إلى الحق من إضافة الشيء إلى صفته أو جنسه كقولك: كلمة الحق.

أما ما قد يُدعى من دون الله عزّ وجلّ من سائر المخلوقات، أيّاً كان، فإن دعاءهم باطل لا يتوقع من ورائه استجابة ولا فائدة. ولما كان الحكم على دعائهم بالبطلان وعدم الاستجابة معنىً سلبياً اعتبارياً لا يمكن أن تتجسد له صورة في الذهن، قلب البيان القرآني المُعجز السلب إلى صورة إثبات مستعملاً

لذلك أداة الاستثناء وصورته ليتجسد مظهر البطلان وعدم الاستجابة في صورة محسوسة متخيلة تتجسد فيها بلاهة أولئك المغرورين وضلالهم، فقال: ﴿ والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفّيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ﴾ فقد صوّر لك عدم استجابة الآلهة أو المخلوقات التي تدعى من دون الله مع استمرار أولئك المغرورين والمبطلين في التعلّق بها، بحالة ظمآن راح يبسط كفّيه نحو ماء بعيد يلمع في قاع بئر أو يبرق له في وسط مغارة ليستجيب لدعاء كفّيه ويأتيَ فيبلغ فاه، وأنّى له أن يبلغ؟!. وبذلك تعلم أنه ليس في الآية استثناء حقيقي ولكنه صورة متخيلة محسوسة يلمسها الشعور بل تكاد تراها العين.

وتختم الآيات بهذه الجملة الأخيرة: وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ومعناها العام واضح كما ترى، ولكن انظر إلى صياغة الجملة وما أحدثه فيها حرف الجر: «في» من الصورة التي تمتد بالخيال في آفاق واسعة محسوسة. إنها تصوِّر لك دعاءهم الباطل وكيف يذهب في دروب ضائعة خاسرة، إنه كما يقولون: صيحة في وادٍ ونفخة في رماد، وأين هذا المعنى التصويري الرائع مما لو قال: وما دعاء الكافرين إلا ضلالاً؟..

والله سبحانه وتعالى أجلّ وأعلم.

* * *

في الوَصْف

(من سورة غافر. من آية: ١٠ إلى آية: ٢٠)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿ إنَّ الذين كفروا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ الله أكبرُ من مَقْتِكم أنفسَكم إذ تُدعَون إلى الإيمان فتكفرون. قالوا ربَّنا أمتَّنا اثنتينْ وأحيَيتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خُروجٍ من سبيل، ذلكم بأنه إذا دُعي اللهُ وحدَه كفرتم وإن يُشرَكْ به تؤمنوا فالحُكمُ لله العليِّ الكبير. هو الذي يريكم آياته وينزِّل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلا من ينيب. فادعُوا الله مخلصين له الدين ولو كَره الكافرون، رفيعُ الدرجات ذو العرش يُلقي الرُّوحَ من أمره على من يَشاءُ من عِبادِه لِيُنذِر يومَ التلاقِ يومَ هم بارزونَ لا يخفى على الله منهم شيء. لمن الملكُ اليوم، للهِ الواحدِ القهّار. اليومَ تُجزى كلُّ نفسٍ بما كسبت لا ظلمَ اليومَ إن اللهَ سريعُ الحساب. وأنذِرْهم يومَ الآزفة إذ القلوبُ لدى الحناجر كاظمين ما للظالمينَ من حميم ولا شفيع يطاع. يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور. والله يقضي بالحقِّ والذين يدْعُونَ من دُونه لا يَقضون بشيء إنَّ الله هو السميع البصير ﴾.

تعريف عام بالآيات:

في الآيات التي قبل هذه حديث عن المؤمنين وعن أن حملة العرش من الملائكة يظلون يستغفرون لهم ويدعون الله لهم بالرحمة وأن يدخلهم جنات عدن التي وعدهم بها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم.

ومن عادة الأسلوب القرآني ـ كما بيّنا ـ أنه يضع آية الشدّة إلى جانب آية الرخاء. ويتبع الحديث عن إحدى طائفتي المؤمنين أو الكافرين بالحديث عن

الطائفة الأخرى، للأسباب التربوية التي ذكرناها فيما مضى. فناسب أن يُردف الحديث عن المؤمنين ودعاء الملائكة لهم، بالحديث عن الكافرين وما يقولون ويقال لهم يوم القيامة، وبعد أن تَعرض الآيات لهذه الصورة من حال الكافرين يوم القيامة يتناول البيان القرآني وصف يوم القيامة بصورة عامة ومخيفة يتضاءل أمر الكافرين وشأنهم من خلال هولها. ونجد أنه أدخل ضمن هذا البيان آيات يتجه فيها الخطاب إلى الناس بالموعظة والتذكير وإعداد العدّة لهذا اليوم قبل فوات الأوان، وذلك حسب الطريقة القرآنية المتبعة من إقحام آيات الوعظ والإرشاد والتوجيه خلال الموضوعات والأبحاث الأخرى لأسباب ذكرناها فيما سبق.

شرح الآيات:

* تصف الآية الأولى، بأسلوب فريد، مدى كراهية الله للكافرين يوم القيامة، فتجعل المقياس الموضّح لذلك مدى كراهية الكافرين لأنفسهم إذ أودت بهم إلى هذا المصير الهائل الأليم، وإنها لكراهية شديدة إذ ذاك. إن مقت الله لهم في ذلك اليوم أكبر وأشدّ من مقتهم الشديد لأنفسهم ومن مقت بعضهم لبعض. ولئن كان سبب مقتهم أنفسهم أنها أودت بهم إلى هذا المصير، فإن سبب مقت الله لهم أنهم طالما دُعوا في دنياهم إلى الإيمان وظلوا يجحدون ويكفرون. فهذا معنى قوله: إن الذين كفروا ينادَون لَمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون. أي لمقت الله إياكم اليوم أشدّ من مقتكم أنفسكم، و﴿ إذ تدعون.. ﴾ علة لمقت الله عزّ وجلّ. وأنت خبير أن مقت الله إياهم ليس خاصّاً بذلك اليوم بل هو موجود في الدنيا أيضاً، ولكن لما ظهر أثره يوم القيامة أسند إلى ذلك اليوم. على أنه يجوز عدم تخصيص المقت إياهم بذلك اليوم وحده، فتكون الآية بياناً لما استحقوه من المقت منذ أن كفروا في دار الدنيا.

* وتصف الآية الثانية مدى ذلّهم وضراعتهم في ذلك الموقف حيث يقولون: ﴿ ربّنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا ﴾. أي أمتنا إماتتين اثنتين وأحييتنا إحياءتين اثنتين، والإماتتان هما الإماتة السابقة على الوجود في

الحياة الدنيا، والإماتة السابقة على الحشر يوم القيامة. والحياتان هما الحياة التي عاشوها في الدنيا والتي بعثهم الله إليها يوم الحشر. وعبّر عن العدم الأول بالإماتة مع أنه عدم أصلي غير مسبوق بوجود ليصوّر لك أن ذلك إنما هو أيضاً بجعل الله وتقديره، كما تقول: سبحان من صغر البعوض وعظم الفيل، مع أن البعوض صغير من أصله.

ويقولون بعد ذلك: فاعترفنا بذنوبنا، ليمسحوا بهذه الضراعة جحودهم السابق، وليجعلوا من ذلك تمهيداً وتوطئة لرجائهم الذي يتقدمون به: فهل إلى خروج من سبيل؟. وأنت إذا تأملت في هذه الجملة وجدتها تصوِّر أبلغ حالات الضراعة والاسترحام والذل: فقد عبّروا عن رجائهم بهل وهي - كما تعلم - استفهام عرض ورجاء، ثم عبّر عن الرجوع إلى دار الدنيا بمطلق الخروج من هذا الموقف، ونكّر الكلمة بياناً لتعلقهم الشديد بأي خروج من هذه الورطة، ونكر السبيل وزاد من تنكيرها وتعميمها بتسليط «من» عليها، ليصبح المعنى هل إلى أيّ خروج من هذا المأزق سبيل ما من الممكن تصوره؟.. وهو كما ترى كلام من غلب عليه القنوط واليأس وأسقط في يديه، فراح يتعلق بحبال واهية من الرجاء والضراعة والذل.

* والآية بعدها مُعْرضة - كما ترى - عن الجواب على استرحامهم هذا، تنبيهاً إلى استحالة ما يؤملونه وإلى وضوح ذلك بحيث لا حاجة إلى التحدّث فيه والإجابة عنه، ولكنها تكشف لهم عن علة هذه الاستحالة وسببها، إذ تقول: ذلكم الذي انتهيتم إليه من العذاب الذي لا مردّ له، إنما هو بسبب أنكم كنتم إذا دعيتم إلى الله في دار الدنيا بادرتم إلى الجحود والكفر، وإن لاحت لكم دعوة إلى باطل أو شرك سارعتم فيه وآمنتم به.

وتأمل في دقة التعبير القرآني عن هذا المعنى: ﴿ ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم، وإن يشرَك به تؤمنوا ﴾ عبّر عن حال الدعوة إلى الله بإذا الدّالة على التحقق والتكرار، وعن حال ظهور الشرك أمامهم بإن الدّالة على المصادفة في الوقوع وعدم التكرار، ونصّ على الدعوة في الحالة الأولى وأهمل ذكرها في الحالة الثانية، ليصوِّر في الذهن مدى ما انتهى إليه حالهم من السوء، فهم لا

ينصتون إلى شيء من الحق مهما ذكروا به ودعو إليه، في حين أنهم يسرعون إلى الكفر والجحود مهما لاحت لهم أي صورة منه على البعد.

فمن أجل ذلك، لا مردّ ولا رجوع؛ والحكم لله العليّ الكبير وحده.

* ويلتفت السياق هنا، بعد أن تصور القارىء المتأمل رهبة الحشر والحساب يوم القيامة، وتصور حالة الندم التي يستغرق فيها الكافرون إذ ذاك دون أي فائدة؛ لينبّه الناس ـ وإن الوقت لم يفت بعد، وإن هذا الموقف لا يزال غيباً في علم الله ـ إلى أن يتداركوا فيصلحوا أحوالهم ويؤمنوا بالحق القائم جليّاً أمام بصائرهم. فيقول الله عزّ وجلّ مخاطباً عباده في دار الدنيا: ﴿ هو الذي يُريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلا من ينيب ﴾. فأما الآيات، فهي تلك الدلائل الجليّة على وجود الله ووحدانيته والتي بها تستقر العقيدة الصحيحة في القلب فتحقق مصلحة الدين للناس في الحياة. وأما الرزق الذي ينزل من السماء فهو كناية عن سببه وهو المطر الذي به تحيا الأرض وتوجد الأرزاق، والذي به تتحقق مصلحة الدنيا للناس في الحياة، فالآية تبيّن أن الله عزّ وجلّ قد أقام لعباده في الدنيا كلاً من أساسي مصلحة دينهم ومصلحة دنياهم.

ولكن رغم ذلك كله، فإنه لا يتذكر هذه الحقيقة الواضحة ويستيقظ إليها إلا من تخلّص من شوائب أهوائه وأغراضه ورجع إلى عقله المتجرد الحرّ يستمع إلى حكمه ويأخذ بهديه.

* فإذا كان الأمر كذلك، فاستقيموا أيّها المؤمنون على عبادة الله تعالى وأخلصوا الدين له، ولا تلتفتوا إلى ما يغيظ الكافرين من ذلك، فهم إنما يكرهون ذلك منكم وينكرونه بسائق من شهواتهم وأهوائهم النفسية، لا بوحي من عقولهم الحرّة الطليقة.

ولما أمر الله المؤمنين بالاستقامة على عبادة الله، أتبع ذلك ببيان بعض ما يتصف به الله عز وجلّ من صفات الربوبية تأكيداً لما تضمنته الآية السابقة من الأمر بعبادة الله عزّ وجلّ فقال: ﴿ رفيع الدرجات، ذو العرش، يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ﴾.

فأما: رفيع الدرجات، فهي بمعنى مرتفع الصفات فلا يلحق به فيها غيره ولعلّ هذا خير من القول بأن رفيع بمعنى رافع وأن المعنى: رافع درجات من شاء من عباده، ذلك أن الأشبه برفيع أن تكون صفة مشبهة لا اسم فاعل.

وأما: ذو العرش، فمعناه مالكه وخالقه، وإنما أفرده بالذكر لأنه من أعظم مخلوقاته وأجلّها، والعرش من الغيب الذي أخبرنا الله عنه ولم يطلعنا عليه، فهو مما يجب الإيمان به غيباً. والصفتان خبران لمبتدأ محذوف تقديره: هو، حذف اكتفاء بما يدل عليه وتوجيهاً للفكر كله إلى التأمل في هذه الصفات.

و﴿ يلقي الروح من أمره.. ﴾ خبر آخر، فهي صفة ثالثة، أي إنه يرسل الوحي الذي هو بمثابة الروح لحياة الإنسان، إذ إن مضمون الوحي الإلهي إنما هو روح للحياة الحقيقية التي يحتاجها الإنسان أشد من حاجته إلى الغذاء. وتأمل في التعبير بـ﴿ يلقي ﴾ وانظر إلى الكلمة كيف تصور انطلاق الوحي من الله عزّ وجلّ إلى من شاء من عباده في إلقاء سريع، فلا يمكن أن يلحقه أي تبديل أو تحريف، وهو ما يؤكد مضمون قوله: من أمره، أي يلقي الروح ناشئاً ومنطلقاً من أمره، فمن للابتداء، والجار والمجرور متعلق بمحذوف منصوب على الحالية.

وفي قوله: ﴿ على من يشاء من عباده ﴾ دلالة على أن النبوّة لا تأتي بالكسب والترقي في مدارج الصلاح والتقوى، وإنما هي اختيار إلهي محض.

أما الوظيفة التي يتضمنها الوحي ويكلف بها الرسول فهي أن ينذر يوم التلاق، أي يوم القيامة.

ولم يذكر المفعول الأول لينذر، ليكون الإنذار عامّاً للناس كلهم في مختلف الأعصار والأمصار، ولم تزد الآية على أن أطلقت على يوم القيامة اسم: يوم التلاق، دون أن تعين المقصود بالتلاقي الذي يكون فيه، ليشمل كل تلاقٍ يكون في ذلك اليوم.. إذ فيه تتلاقى سلسلة أجيال البشر كلها على صعيد واحد بعد أن كانت مفرقة على عمر الدنيا كلها، وفيه يتلاقى الناس بالملائكة وأهل السموات بأهل الأرض، وفيه يتلاقى الناس مع ما قدّموه من أعمال...

إنه حقيقةً يوم التلاق. . التلاقي بمعناه الشامل العام وبكل ما في الكلمة من معنى، وإنه لتلاقٍ عجيب ورهيب!!.

ومع الحديث عن آخر هذه الصفات يعود السياق، كما ترى إلى أول البحث؛ وهو الحديث عن يوم القيامة وحال الكافرين فيه؛ فتصف الآيات التالية جوانب من مظاهر يوم التلاق:

* ﴿ يوم هم بارزون، لا يخفى على الله منهم شيء، لمن المُلْك اليوم؟ لله الواحد القهّار ﴾: ثلاث صفات من أهم صفات يوم الحشر، تصورها هذه الجمل الثلاث تصويراً يسيطر على المشاعر ويأخذ بالقلب.

يوم هم بارزون: بدل من يوم التلاق، أي لينذروهم ذلك اليوم. يوم هم خارجون من قبورهم إلى ظاهر أرض مستوية لا يسترهم فيها شيء من جبل أو بناء أو وادٍ أو أكمة. إذ هي كما قال عزّ وجلّ: قاع صفصف لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً.

لا يخفى على الله منهم شيء: استئناف فيه مزيد من التقرير لبروزهم ووضوحهم في ذلك الموقف، وفيه مزيد من نسخ ذلك الباطل الذي كان عالقاً برؤوس الكافرين منهم في الدنيا من أن الأرض إذا التقمتهم وأصبحوا تراباً فهيهات أن يحشروا مرة أخرى، فها هم اليوم بارزون ظاهرون يموجون تحت سلطان الله وفي قبضته وأمام نظره.

لمن المُلْك اليوم؟ لله الواحد القهّار: صفة ثالثة جاءت بهذا الأسلوب التصويري المثير. فمن أجل ذلك حذف لفظ القول من جملتي السؤال والجواب معاً، لأن المقصود ليس إخباراً عن كلام سيحصل، وإنما المقصود تصوير ذلك المشهد الرهيب في أخصّ مظاهره وأحواله.

فالسؤال منبعث من وحي المشهد: لقد برز الناس جميعاً من قبورهم إلى هذا الملتقى، ولقد تقطعت أسباب دنياهم وعلاقات ما بينهم وانسلخت عنهم مظاهر المُلْك والجاه والسلطان، وجاءوا لا يسوقون معهم إلا جسومهم العارية. فيرتسم السؤال من وحي الحالة وهول المشهد ومن ذكرى الغرور الدنيوي الذي

طوي عهده: لمن المُلْك اليوم؟ ليرتسم من ورائه الجواب الذي يملؤ سمع الزمان والمكان وينطبع في كل أذن وفكر: لله الواحد القهّار.

* ﴿ اليوم تُجزى كلُّ نفسٍ بما كسبت، لا ظلم اليوم، إن الله سريع الحساب ﴾: ثلاث صفات أخرى ليوم القيامة توضح أهم خصائص ذلكِ اليوم، وهو الحساب الذي تلاقيه كل نفس على ما قدّمت.

اليوم تُجزى كل نفس بما كسبت تعطى جزاء كل ما قد فعلته من خير وشر، وفي تقديم ﴿ اليوم ﴾ وتصدير الجملة بها إيحاء بأن الناس طالما أُمهلوا من قبل حتى ظن كثير منهم أنه لا جزاء ولا حساب!..

لا ظلم اليوم: سيبلغ اليومَ كلُّ حقٍّ مداه، وسينصف كل مظلوم ويقتصّ من كل ظالم، ولكن هل كان في دار الدنيا ظلم حتى يكون نفيه خاصاً بهذا اليوم؟ إن الجملة صيغت بهذا الشكل ردّاً وتبكيتاً لأولئك الذين طالما تساءلوا في دار الدنيا عن أسباب تفاوت الناس في مظاهر السعادة ووجود مظاهر البؤس والفقر إلى جانب مظاهر النعمة والترف ونسبوا إلى الله من أجل ذلك الظلم والجور، قصداً إلى الإلحاد في ذاته وادّعاء عدم وجوده؛ فالجملة تقول لهؤلاء الناس ـ على سبيل التبكيت والتأنيب ـ: تستطيعون أن تطمئنوا اليوم إلى أن مثقال ذرّة من العدالة لن يهدر وإلى أن أحداً من الناس لن يظلم؛ إن حياتكم التي مرّت لم تكن إلا فصلاً صغيراً من قصة الوجود الإنساني كله، والحكم على القصة ما كان ينبغي أن يكون من خلال ما يتراءى من فصل واحد صغير فيها، وسترون من مجرى الحساب والجزاء، اليوم، أن عين العدالة لم تغفل عن الإنسان لحظة واحدة في دنياه التي خلت.

فلما كانت هذه الحقيقة إنما تتجلى وتتكشف للناس يوم القيامة، أسند نفي الظلم إلى ذلك اليوم تصويراً لهذه الحقيقة كلها.

إن الله سريع الحساب: لن يعجزه شيء عن محاسبة هذه الخلائق المتجمعة كلها في آنٍ واحد، فهو تعالى لا يشغله شأن عن شأن. ولئن كان وقت الحساب يطول أمده على الناس، فإنما هو لعظم الهول الذي يحيط به، وليس لعجز الله عن الإسراع في محاسبتهم!..

* ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة، إذ القلوب لدى الحناجر، كاظمين، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ عود إلى وصف يوم القيامة بأسلوب مختلف وبأنواع أخرى من الصفات الهائلة المخيفة.

والحديث هنا يتحول إلى مخاطبة رسول الله ﷺ، قائلاً: أنذر الناس يا محمد يوم القيامة، فيوم مفعول ثانٍ لأنذر. ولقد سمى القيامة هنا بيوم الآزفة، بعد أن سمّاها في الآيات السابقة: يوم التلاق. وكِلا الاسمين وصف صادق وهائل ليوم القيامة. وهي من أزف الأمر إذا دنا، وإضافة اليوم إليها من إضافة الشيء إلى صفته، أي اليوم الآزف وإنما سمّاه الله ﴿ الآزفة ﴾ تنبيهاً إلى أن ذلك اليوم قريب وإن استبعد الناس مداه واستأخروا قدومه. ولقد وصف الله هذا اليوم بعكس ما هو متصور في أذهان الناس كي يتنبهوا إلى خطأ تصورهم هذا، ولكي يعلموا أن كل ما هو كائن فهو قريب.

ولك أن تقول: ففيم أُنِّثت الآزفة، وهي كما تقول صفة لليوم؟ والجواب ـ كما قال القفال وغيره ـ أن سائر أسماء القيامة جارية على التأنيث كالطامة والحاقّة ونحوهما تضميناً لها معنى الداهية، أي فالتأنيث للتهويل.

إذ القلوب لدى الحناجر: استحضار لصورة الكرب الشديد العالق بنفوس الناس إذ ذاك، والكرب معنى اعتباري مجرد، ولكن الآية تبرزه في أروع صورة محسوسة مجسّمة، وصورة الكرب هنا هي تلك القلوب التي ارتفعت من أماكنها حتى التصقت بالحلوق، فلا هي تعود فيستروحوا ولا هي تخرج فيستريحوا. وانظر إلى الشمول الذي دلّت عليه «القلوب» و«الحناجر»!.. فهو لم يضف القلوب والحناجر إلى أناس بأعيانهم، بل قطعها عن الإضافة والتخصيص، وعبّر بصيغة الجمع وأدخل «الـ» عليها، لتفهم أنها غاشية عامة من الضيق والكرب تمتد إلى كل من يزدحم بهم ذلك الموقف المريع.

كاظمين: حال من أصحاب تلك القلوب، وهم وإن لم يذكروا في الآية ولكن صورتهم ماثلة في المخيلة. والكاظم هو المنحبس على حال من الغم والغيظ امتلأت بهما نفسه، وهي صورة أخرى للكرب الشديد في ذلك اليوم، ليس عنه أي متنفس ولا مهرب!..

ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع: كشف للحالة التي قد يتساءل عنها الفكر والذهن: أليس ثمة من ملجأ أو شافع أو معين؟ لا.. ليس للظالمين أي ملاذ، إنه الكرب الذي لا مفر منه ولا مخلص، فليس ثمة قريب شفيق، ولا شفيع يطاع قوله أو ينظر في شفاعته. ونفي وجود القريب الشفيق إنما هو تصوير لعدم اهتمام المرء إذ ذاك إلا بنفسه. فالأقارب لا يزالون أقارب لبعضهم إذ ذاك ولكن أحداً منهم لا يتعرف على الآخر، فكأن الأنساب قد قطعت مما بينهم حينئذ فلا وجود لها كما يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ ونفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾.

* ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ أسلوب آخر في التعبير عن مجازاة الله ومحاسبته للناس إذ ذاك، وفي التعبير عن عدم تمكن الكافرين والجاحدين يومئذ من المكر أو الكذب أو إخفاء الحقائق.

إن الله عزّ وجلّ مطّلع على كل ما قد يجترحه أو يكسبه الإنسان سواء كان ذلك بجوارحه الظاهرة أو بنفسه ووساوسه الخفية. وتأمل كيف عبّر البيان القرآني عن النوع الأول بـ: خائنة الأعين وعن الثاني بـ: ما تخفي الصدور. لقد كنى عن أعمال الجوارح بأدق مثال لها، وهو النظرة المريبة بالعين وعبّر عنها بخائنة الأعين، أي الأعين الخائنة، على أن الخائنة اسم فاعل، أو بمعنى: خيانة الأعين على أنها مصدر كالعافية والعاقبة، كأن العين تخون صاحبها فتنم عمّا أضمر في نفسه، أو تخون الحق والأمانة إذ تغمز وتسترق النظرة المحرمة.

وكنى عن أعمال القلوب ووساوسها بما تخفي الصدور؛ والصدور هي مستكنّ الأسرار والخفيات.

فكيف يستطيع الظالمون مع ذلك إخفاء الحقائق؛ أو الكذب على الواقع؟! أم كيف يعجز الخالق جلّ جلاله عن محاسبتهم على كل ما اجترحوه من صغير وكبير؟!

* وتختم هذه الآيات الوصفية المتضمنة لطرف من أهوال يوم القيامة بتقرير الحقيقة التي يريد الله عزّ وجلّ من عباده أن ينتبهوا إليها قبل فوات

الأوان، وهي أن الله وحده الذي يقضي بالحق الذي يشاء على مخلوقاته كلها في الدنيا والآخرة، فهو وحده المؤثّر في خلق العالم وطبائع الأشياء، وهو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وإليه مردّ الناس كلهم ليقضي فيهم قضاءه المبرم الذي لا قضاء فوقه.

وهيهات أن يكون لشيء من المخلوقات الأخرى التي يؤلهها الكافرون والجاحدون من الأصنام أو الناس أو طبائع الأشياء، أي صفة من هذا القبيل: ﴿ والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير ﴾.

والله تعالى أعلم.

* * *

في المبادئ والإنسانيات

(من سورة الإسراء من آية: ٢٣ إلى آية ٢٩)

قال الله تعالى:

﴿ وقضى ربك ألاّ تعبُدوا إلا إيّاه وبالوالدَين إحساناً، إمّا يبلُغَنَّ عندك الكبرَ أحدهُما أو كلاهما فلا تقُلْ لهما أُفٍّ ولا تنهرْهُما، وقُل لهما قولاً كريماً، واخفضْ لهما جنَاح الذلِّ من الرَّحمة وقل ربِّ ارحمهما كما ربياني صغيراً. ربكم أعلمُ بما في نُفوسكم إن تكونُوا صالحينَ فإنه كان للأوّابين غفوراً. وآت ذا القُربى حقّه والمِسْكينَ وابنَ السبيل ولا تُبذِّر تبذيراً. إن المبذرين كانوا إخوانَ الشياطين وكان الشيطانُ لربه كفوراً. وإما تُعرضنَّ عنهم ابتغاء رحمةٍ من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً. ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك ولا تبسطها كلَّ البسط فتقعد ملوماً محسوراً. إن ربك يبسُط الرزق لمن يشاء ويَقْدِر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً. ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قَتلتهم كان خِطْئاً كبيراً. ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشةً وساء سبيلاً. ولا تقتُلوا النفس التي حرّم اللّهُ إلا بالحق ومن قُتِل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً فلا يُسرف في القتل إنه كان منصوراً. ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغَ أشُده وأوفوا بالعهد أن العهد كان مسؤولاً. وأوفوا الكيل إذ كلتم وزنوا بالقِسطاس المستقيم ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً. ولا تقفْ ما ليس لك به علمٌ إن السمع والبصر والفؤادَ كلُّ أولئك كان عنه مسؤولاً. ولا تمشِ في الأرض مرَحاً إنك لن تخرِق الأرض ولن تبلُغَ الجبال طُولاً. كل ذلك كان سيّئُهُ عند ربك مكروهاً. ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتُلْقى في جهنم ملوماً مدحوراً ﴾.

تعريف عام بالآيات:

تعرض هذه الآيات لبيان أحد عشر مبدأ من أهم المبادىء الإنسانية العامة. مبتدأة ومختتمة بمبدأ التوحيد والعبودية لله عزّ وجلّ. وتأتي هذه الآيات بعد آيات سابقة تتحدث عن أهمية القرآن في إصلاح حياة الإنسان ودلالته على النهج القويم، وعن حدود المسؤوليات ونظامها وقيمة كلٍّ من الحياتين الدنيوية والأخروية.

فهي تأتي بعد منبهات وحوافز تهيىء كلاًّ من النفس والذهن لقبول ما تتضمنه هذه الآيات من مبادىء الإنسانية بقبول حسن.

شرح الآيات:

* وقضى ربك ألّا تعبدوا إلا إياه. أي أمر ربك ألّا تعبدوا إلا إيّاه، وقد استهلّ الخطاب بجملة إخبارية للرسول ﷺ، وهي: وقضى ربك. ثم التفت بالخطاب إلى الناس حينما تحول من الإخبار إلى الإنشاء، فقال: ألّا تعبدوا إلا إياه. وذلك لأن الجملة الأولى حكاية فناسب أن يتجه الخطاب فيها إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وأما الثانية فأمر وتوجيه، فناسب أن يتجه الخطاب فيها إلى عامّة الذين يتجه هذا الأمر إليهم.

فهذا أول مبدأ من المبادىء الأحد عشر، وهو أخطرها وأهمها.

ثم أتبعه بالمبدأ الثاني قائلاً: وبالوالدين إحساناً، أي وأن تحسنوا بالوالدين إحساناً، تقول. أحسنت به وأحسنت إليه. وإنما جعل رتبة برّ الوالدين إثر رتبة توحيد الله وعبادته، لأن الله هو المسبّب الحقيقي لوجود الإنسان وعيشه وارتزاقه، والوالدان هم السبب الجعلي والظاهري لكلٍّ من الوجود والعيش، فلئن كان المقتضي لعبادة الله أنه الخالق والمنعم الحقيقي، فإن المقتضي لبرّ الوالدين ما قضت به حكمة الله من أن يكون وجود الإنسان بهما ونشأته عن طريق رعايتهما.

ثم شرح المقصود بالإحسان فقال: إمّا يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً. وأصل الجملة: إن يبلغ

عندك الكبر.. فركبت إن مع ما التي يسمّونها زائدة لتصوير المبالغة في استقصاء الظروف والأحوال، وادخل نون التوكيد على الفعل لنفس الغرض أيضاً، فأصبحت الجملة تقول لك بكلٍّ من جرسها ومضمونها: مهما وجدت الشيخوخة قد دبّت إلى أحد من أبويك فليكن موقفك منهما في كل الظروف والأحوال موقف الراحم الشفوق والخادم المحب.

وكان من الممكن لسلامة أصل هذا المعنى أن تستغني الآية عن كلمة «عندك» بأن تقول: إما يبلغنّ الكبرُ أحدهما أو كلاهما.. لولا أن «عندك» هذه تثبت في إحساس المخاطب معنىً هائلاً يثير فيه النزوع إلى الشفقة والرقة والعطف. فالآية تصور بهذه الكلمة كيف أن الكبر والضعف قد وضع كلاً من الوالدين في كنف الابن وتحت رعايته بعد أن كان الابن هو الضعيف الذي يعيش في كنفهما وتحت رعايتهما.

والقصد إلى تصوير هذا المعنى هو الذي اقتضى تقديم لفظ «الكبر» وهو مفعول، على لفظ: أحدهما وهو فاعل، ولو اختلف نسق هذه الألفاظ وترتيبها اختلافاً ما، لاختفت الصورة وبطل أن يكون في الآية شيء من هذا الإيحاء.

ثم انظر كيف نهتك الآية عن أن تضيق ذرعاً بهما في شعورك ونفسك كما نهتك عن إيذائهما في شيء من عملك ومعاملتك، ثم كنّت عن الأول بأقل مظهر له وهو التأفف، وكنّت عن الثاني بأدنى مظهر من مظاهره وهو القسوة أو الانتهار في القول، فنهت عن ذلك بدلالة النص، إذ النهي عن أدنى إفراد الشيء أبلغ نصٌّ في الدلالة على عموم النهي عن الجنس كله.

* ثم زاد الأمر بالإحسان إلى الوالدين تأكيداً، فصوّر لك ما ينبغي أن تكون عليه حال الولد من والديه دائماً، وأخرج معنى الرحمة بهما والإحسان إليهما والتواضع لهما في مظهر شيء متخيل محسوس مبالغة في الإلزام به والدعوة إليه، فقال: ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾. فقد صوّر الذلّ المأمور به بطائر خرَّ هاوياً إلى الأرض ثم صوّر مبالغة وضوح الذلّ والتواضع بنشر هذا الطائر مع ذلك جناحيه يخفضهما نحو الأرض.

بيد أنه استدرك، كي لا تحسب أنه ذلّ الحطّة والصغار، وهو ما ينهى عنه الإسلام ولا يمكن أن يأمر به، فقال: من الرحمة، أي بسبب وبعامل الرحمة بهما، وهو شرف لك وليس بصغار عليك.

ومع ذلك، فلا تقتصر على أن تعاملهما برحمة من عندك، بل ادعُ الله لهما أيضاً على أن يشملهما برحمة من عنده. وقل ربّ ارحمهما كما ربياني صغيراً أي رحمة كرحمتهما بي إذ كنت صغيراً، أو في مقابل رحمتهما بي إذ ذاك.

* ولما بالغ هذه المبالغة في الأمر ببرّ الوالدين، حتى إنه لم يرخص في أدنى كلمة قد تتفلت من المتضجر، أعقب ذلك ببيان رفع الحرج عمّن أساء ثم أسرع فتاب، ولم يكن قلبه منطوياً إلا على الخير والبرّ والتزام أمر الله عزّ وجلّ، وتأمل في الأسلوب الذي أخرج به هذا المعنى إذ قال: ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوّابين غفوراً. وفيه تقرير بأن التوبة الكاذبة باللسان لا تخدع الله عزّ وجلّ لاطّلاعه على ما استقرّ في النفوس، وفيه تأكيد بأن الله يقبل توبة الآيب إليه النادم علىٰ ما قد كان منه.

* وينتقل البيان القرآني إلى المبدأ الثالث، وهو الوفاء بحق القرابة والرحم خاصة وبحق عموم الفقراء والمساكين عامة؛ وهو مبدأ وثيق الصلة والمناسبة بالذي قبله وهو برّ الوالدين. وليس الأمر هنا بالإحسان والرفق، ولكنه أمر بإعطائهم الحق الذي لهم عليه، حتى لا تتصور أن لك بذلك عليهم منّة وأنك تمنحهم من حقك الذي هو لك.. وعن هذا المعنى تعبّر صياغة الآية: وآتِ ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل. أما الأمر بالإحسان إلى الوالدين، فليس فيه مثار لهذا التصور، وذلك لأن الولد مهما بالغ في الإحسان إلى والديه فإنه لن يفي لهما بجزء من حقهما السابق عليه.

ولما كان الوفاء للأقارب والمعوزين بحقوقهم يقتضي حجز المال عن تبديده في الجهات الباطلة نهى الله عن ذلك بقوله: ولا تبذر تبذيراً. والمفعول المطلق لبيان النهي عن التبذير الذي لا مسوغ له إلا التبذير المجرد، وذلك لإخراج صور من الإنفاق قد تظهر في مظهر التبذير ولكنها ليست في الحقيقة كذلك إذ يقتضيها مصالح وأسباب مشروعة معينة.

وبالغ في النهي عن هذه العادة بقوله مخبراً: إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً. أي كانوا قرناء للشياطين، وفيه إلماح إلى أن عادة تبذير المال وتبديده إنما تتمكن بتغلب الوساوس الشيطانية لا أكثر، إذ ليس من ورائه أي غاية أو مصلحة يحتاجها الإنسان.

* ولكن أرأيت لو لم يكن الإنسان موسراً بالمال الذي يعطي منه حق القرابة والمحتاجين فأعرض عنهم عجزاً عن العون لا استكباراً عن أداء الحق؟.. لقد عالج البيان الإلهي العظيم هذه الحالة بأسلوب بالغ الروعة إذ قال: ﴿ وإمَّا تعرضنّ عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها، فقل لهم قولاً ميسوراً ﴾. أي مهما اضطررت إلى الإعراض عنهم بسبب الفقر والعوز اللذين تتأمل بهما فرج الله ورحمته، فقل لهم في مكان ذلك كلاماً سهلاً ليّناً وعدهم وعداً جميلاً، فالميسور هنا مفعول بمعنى الفاعل، أي يسر ضرّهم عليهم بكلامك الجميل لهم.

ولما أمر الله عزّ وجلّ في الآيات التي ذكرناها بالوفاء بحق الأقارب والمحتاجين ونهى عن تبديد المال فيما لا حاجة إليه، حتى لا يفوت بذلك أداء هذا الحق والقيام به، ناسب أن ينتقل الحديث إلى تقرير مبدأ جديد يتعلق بتنظيم الإنفاق ويضع قانوناً عادلاً له. والمبدأ الإلهي الذي يخاطب به كافة العباد في ذلك، هو أن يكون الإنفاق قائماً على العدل بين التقتير والبخل المعيب من جانب، والإسراف والتبذير المقيت من جانب آخر. ولكن الأسلوب القرآني لا يعبّر عن هذا المعنى بهذه الطريقة المألوفة، وإنما يخرجه في صورة محسوسة متخيلة فيقول: ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً. فقد صوّر البخل في مظهر اليد المربوطة إلى العنق فهي لا تكاد تنفك عنه، ومعلوم أن اليد أبعد ما تكون عن الآخرين حينما تكون مقيدة بهذا الشكل الغريب، وصوَّر الإسراف بتلك اليد التي تظل ممتدة ومبسوطة لا تكاد ترجع إلى صاحبها أو تنقبض على شيء، ثم هدد من يلتزم بذلك التفريط أو هذا الإفراط بأن سيأتيه يوم يعود من دأبه هذا ليقعد منقطعاً عن أسباب العيش والرزق، يتلقى اللوم من الله والناس على ما أفرط أو فرَّط.

* وتأتي الآية التي بعدها، واقعة موقع التعليل لما قبلها وهي: ﴿ إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر. إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾. أي فإذا كان مصدر رزقك هو الله عزّ وجلّ يبسطه إذا شاء ويضيقه عندما يريد، فالتزم وصيته في آداب الإنفاق وكيفيته، إذ لا البخل هو الذي يحفظ مالك ويربّيه ولا التبذير والإسراف يمنعانك من أن يعاقبك الله بذلك فيقدّر عليك رزقك الذي تتقلب وتمرح فيه. ثم يقول: إنه كان بعباده خبيراً بصيراً، إشعاراً بأنه يراقبهم بصدد ما يأمرهم به من هذه المبادىء، هل ينفذونها أم يعرضون عنها؟.

* وتنتهيا المناسبة ـ مع الحديث عن آداب الإنفاق وتقرير أن الرزاق للعباد هو الله وحده ـ لعرض مبدأ خامس، وثيق الصلة بكل ما قد مرّ. فيقول الله عزّ وجلّ: ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً ﴾ أي لا تقتلوهم مخافة فقرٍ تتوهمونه، وأصل أملق بمعنى التصق بالملّقات، وهي حجارة رقاق ملساء فكُني به بعد ذلك عن الفقر والحاجة. ثم علّل النهي بتأكيد ما قد ذكره في الآية السابقة فقال: نحن نرزقهم وإياكم، أي لستم أنتم الذين ترزقون أولادكم حتى تحاروا في أمرهم فتندفعوا بذلك إلى قتلهم، بل نحن الذين نرزقهم وإيّاكم جميعاً، وبالغ في إظهار هذا المعنى مع شيء من التأنيب حينما قدّم ضمير الأطفال في الرزق على الآباء، إذ أشعرهم بذلك بأن رزق أطفالهم مقدّر مهيّأ لهم من قبل رزقهم هم، فلا يتوهموا أن لهم أيّ تأثير في رزقهم حتى ولا التأثير الشكلي الذي يتجلّى في مظهر كونهم وسطاء لهم في الرزق والرعاية.

وحينما نهى الله في سورة الأنعام عن قتلهم أولادهم من أجل وقوع الفقر بهم فعلاً قائلاً: لا تقتلوا أولادكم من إملاق ـ لم يقدّم ضمير الأطفال كما فعل هنا، ذلك لأن خوف الآباء هناك إنما هو على أنفسهم وأولادهم معاً، أو هو على أنفسهم قبل أولادهم فلا داعي إلى إشعارهم بهذا المعنى على ذلك التقدير.

ومن أجل وضوح كل ذلك، فقد كان قتلهم خطئاً كبيراً. وخِطْءٌ بكسر الخاء مصدر خَطِىء يخطأ كأثم يأثم وزناً ومعنىً، فهو أبلغ وأشد من الخطأ بفتح الخاء والطاء، إذ هو الإتيان بما لا ينبغي من غير قصد.

● ويجرّ الحديث عن الأولاد وحرمة قتلهم إلى الحديث عن أهم وأخطر مبدأ من المبادىء المتعلقة بالأسرة، وهو المبدأ السادس في سلسلة هذه المبادىء الإنسانية فيقول الله عزّ وجلّ: ﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ والمنهي عنه في الآية إنما هو الزنى، ولكن الآية لا تنهي عن مباشرة ارتكابه فقط كما في الآيات السابقة، وإنما هي تنهى هنا ـ كما ترى ـ عن مجرد قربه والدنو إليه؛ ففي الآية تقرير واضح للنهي عن مباشرة أسبابه وذرائعه ومقدماته، كاختلاط وخلوة وتبرج ونحوه، ذلك لأن القرب ليس إلا كناية عن ممارسة هذه الدوافع والأسباب. وفي الآية أيضاً تقرير لخطورة هذه الفاحشة وأن عدم مفارقتها لا يكون إلا بالتباعد عن أسبابها وذرائعها القريبة والبعيدة، أما بعد اقتحام الأسباب والذرائع فإن الدوافع البشرية تجمح بصاحبها نحو الشر الذي تعرّض له وهيهات أن يقوى عندئذ على كبحها والتغلّب عليها.

«وفاحشة» في الآية صفة لمحذوف أي كان فعلة فاحشة، وساء سبيلاً، أي بئس طريقاً طريقه، لما فيه من الخطر على الأسرة والمجتمع ولما فيه من مختلف الشرور الأخرى.

● ومع النهي عن الزنى، تحين المناسبة للنهي عن القتل، فهما جريمتان متقاربتان ومتشابهتان في الخطورة والضرر على المجتمع، وكلٌّ منهما يشبه الآخر من بعض النواحي، وهو المبدأ السابع فيما توصي به هذه الآيات: ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق ﴾ ولا تقتلوا النفس أيّ نفس كانت، ما دامت أنها نفسٌ أي روح.. إلا أن يكون ذلك لحق يستوجبه ويقتضيه. وهكذا تدلك صياغة الآية على أن الأصل في كل روح أن تكون مصونة عن الإزهاق، وما يخالف هذا الأصل إنما يأتي لعارض.

﴿ ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً ﴾ من قتل بدون مسوغ من الحق المذكور فقد جعلنا لمستحق دمه تسلُّطاً على القاتل في الإرادة والحكم، فإن شاء طالب بالقصاص وإن شاء بالديّة وإن شاء عفا.

﴿ فلا يُسرف في القتل، إنه كان منصوراً ﴾ عبّر بهذا النهي عن كل ما قد يقوم به وليُّ المقتول من مظاهر الانتقام المختلفة، بأن يقتل في مكان الواحد

اثنين أو ثلاثة كما كانوا يفعلون، أو بأن يمثل بالقاتل أو يزيد إلى القتل سلباً ونهباً، أو بأن يقتل غير قاتله، أو غير ذلك مما يدخل في باب التشفّي ويتجاوز القصاص والحق. عبّر عن النهي عن كل ذلك بهذه الصيغة الجامعة: فلا يسرف في القتل.

والآية لا تنهى وليّ المقتول عن هذا الإسراف إلا وهي تُطمئنه إلى أنه واصل إلى حقه، وعبّرت عن ذلك بصيغة الماضي مصدَّرةً بإن المؤكدة: ﴿ إنه كان منصوراً ﴾ تأكيداً للوقوع ومزيداً من التطمين لخاطر صاحب النفس الملتاعة المتأثرة.

* وتنتقل الآيات إلى مبدأ ثامن، هو الرأفة باليتيم، والنظر في ماله بالحفظ والصيانة. وهو مبدأ يهتم به القرآن اهتماماً كبيراً، لما له من آثار خطيرة في المجتمع سلباً وإيجاباً، إذ التفريط من أسوأ مظاهر الظلم والخيانة.

وفي ذلك يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشُدَّه ﴾. وإنما اقتضت المبالغة في النهي هذا الأسلوب، لأن أكل مال اليتيم له هو الآخر، كالزنا، أسباب وذرائع، إذا تهاون وليّ اليتيم بالوقوع فيها يوشك أن يقع من ورائها في أصل المنهي عنه.

واستثني من عموم النهي أن يعالج له ماله بالحفظ والاستثمار والتجارة التي لا مغامرة فيها، وعبّر عن مثل هذه المعالجات المحمودة بقوله: إلا بالتي هي أحسن من الابتعاد والترك.

وختم هذا الأمر، بتذكير وليّ اليتيم بالعهد الذي قام بينه وبين والده، وبأن عليه الوفاء بالعهد الذي أخذه على نفسه. ويقول بعد ذلك: إن العهد كان مسؤولاً، أي إن العهد سيُسأل عمّا قد فُعل به من حفظ أو ضياع له. أخرج العهد في صورة إنسان تجسدت فيه الأمانة وكلمة الشرف ليوجّه إليه الخطاب والسؤال، وذلك تأكيداً للعدالة الإلهية التي تراقب أعمال الناس ومعاملاتهم لبعض، وتحسيداً لدقة محاسبة كلٍّ على ما قد فعل. وأسلوب الآية في هذا جارٍ على غرار قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإذا الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت ﴾.

* ومع الحديث عن الأمانة وضرورة الوفاء بالعهد يوصي الله عزّ وجلّ بمبدأ تاسع، هو من أهم ما يتعلق بالأمانة والعهد فيقول: ﴿ وأوفوا الكيل إذا كِلتم وزنوا بالقسطاط المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ أي أتموا الكيل ولا تخسروه، حينما تريدون أن تكيلوا للمشترين، فالخطاب هنا للبائعين، إذ هم الذين يكيلون، أما المشتري فإنما هو يكتال، أي يطلب أن يُكال له.

ومن أجل ذلك قيّد الأمر بالوفاء عند إرادة الكيل، إذ الكائل هو الذي تراوده نفسه بخسران الكيل. ثم أمر بنحو ذلك عند التعامل بالوزن، ولما كانت طريقة الوزن مختلفة عن طريقة الكيل خالف في التعبير عن الوفاء بكلٍّ منهما.

وعلّل هذا الأمر بأنه أفضل للبائع، وبأنه أحسن عاقبة. وإنما قال ذلك ليُزيل الوهم العالق بأذهان البعض من أن الظاهر المحسوس أن التلاعب بالكيل والوزن خير للبائع إذ هو يزيد في دخله وربحه. فكأنه يقول: إنه وإن خُيِّل إليكم ذلك في أول الأمر فإن العاقبة تأتي بعكس ما تتخيلون، إذ كل ذلك سرعان ما يتبدد وينمحق، عندما يُعلم شأن هذا المحتال وعادته بين الناس.

* ويأتي المبدأ العاشر نهياً وتحذيراً عن اتّباع أو تبنّي ما لم تعلم حقيقته من الأمور. وهو مبدأ ذو علاقة كبرى بتربية الفرد والمجتمع، وإليه يعود الأمر في معالجة معظم المشاكل والقضايا التي يشكو منها الباحثون والمفكرون في كل عهد وظرف.

ولكن انظر إلى الأسلوب الذي أخرج به البيان الإلهي هذا المعنى: ﴿ ولا تقْف ما ليس لك به علم. إن السمع والبصر والفؤاد كلُّ أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ وتقف بمعنى تتبع من قفا أثره أي اتّبعه. فهو يقول: (لا تكن في اتباعك لما لا تعلم حقيقته من عقيدة أو قول أو فعل مِثْل من يتبع سبيلاً مجهولاً لا يدري إلى م سيوصله. فهو يشبِّه المجهول الذي يسارع فيه الإنسان دون علم حقيقي به، بالطريق التائهة التي لا يدري نهايتها إذ يقتحمها السالك ظانّاً بمجرد وهمه أنه سيصل منه إلى بعض ما يبتغيه.

ثم يعلّل هذا النهي الخطير، بأن كلاًّ من السمع والبصر والعقل إنما هو أمانة استُودِعتها أيّها الإنسان لتستعملها في دَرْك الأمور والتحقّق منها قبل

الخوض فيها، ولا جرم أنك ستُسأل عن هذه الأمانة وستحاسب على تضييعها وعدم استرشادك بها.

ثم إن الجملة في دلالتها على هذا المعنى تحتمل أحد تأويلين:

الأول: أن السمع والبصر والفؤاد كلٌّ أولئك كان مسؤولاً عن نفسه يوم القيامة، فاسم كان ضمير عائد إلى كلٍّ من السمع والبصر والفؤاد. والآية على هذا التأويل جارية على غرار ما قلناه في: ﴿ إن العهد كان مسؤولاً ﴾ و﴿ إذا المؤودة سئلت ﴾ وقد علمت المعنى البلاغي فيه.

الثاني: أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً فاسم كان على هذا ضمير عائد على الإنسان، والمعنى فيه واضح.

وقد نزَّل الله عزّ وجلّ هذه الأعضاء الثلاثة منزلة العقلاء، بسبب أن قوام عقل الإنسان وفكره بها، فمن أجل ذلك أشار إليها بما يشار به إلى العاقل وهو: أولئك.

* والمبدأ الأخير مبدأ أخلاقي ذو اتصال مباشر بالذي قبله، بل بينهما تلازم في السلب والإيجاب، وهو تحذير الإنسان من أن يسلم نفسه للغرور الذي ينسيه حقيقة ذاته فيتعاظم ويتكبر.. وكلُّ ما حوله من الناس والمخلوقات مما لا موجب للتعاظم عليه. وانظر ما يقول الخطاب الإلهي في ذلك: ﴿ ولا تمشِ في الأرض مرحَاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً ﴾ والآية كما ترى تفيض بالصور المختلفة التي تسخر من هذا الذي يمشي متكبراً على الأرض.

فمن ذلك أنه قيد المشي بالأرض، وهو شيء معلوم، إشعاراً بأن هذا الذي يمشي على الأرض لا يليق بحاله أن يتكبر من فوقها.

ومن ذلك أنه أخبر بما هو معلوم، وهو قوله: إنك لن تخرق الأرض.. تنزيلاً للمتكبّر المتجبّر منزلة من غابت عنه هذه الحقيقة الواضحة، فهو يحتاج إلى من ينبهه إليها!

ومن ذلك هذه الصورة الساخرة التي تتركها الجملة في الذهن: إنك لن

تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً. إنها تصوِّر لك ما يفعله المتعاظم في سيره إذ يضرب بقدمه الأرض كأنه يفاخرها ويشعرها بشأنه، ويرفع رأسه متطاولاً كأنما يريد أن يطاول بهامته ذرى الجبال مع أنه هو هو، ذلك المخلوق الضعيف الذي لن يخرق أرضاً ولن يطاول جبلاً.

وبعد أن انتهى الحديث عن تفصيل هذه المبادىء الهامة في حياة الإنسان، عاد الخطاب الإلهي إلى رسول الله ﷺ مشيراً إلى كل هذه المبادىء قائلاً: ذلك ما أوحى إليك ربك من الحكمة ، أي من معرفة الحق؛ فالحكمة، هي اكتشاف الحق الذي قد يخفى على غير ذي البصيرة. وكان الخطاب من قبل ذلك متجهاً إلى الإنسان عموماً، فمرة يخاطبه بصيغة الجماعة كما في قوله: ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ﴾، ومرة يخاطب فيه الفرد المتكرر كما في قوله: ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾..

ثم يختتم هذه المبادىء بما قد بدأ به، وهو مبدأ الإيمان بالله عزّ وجلّ ووحدانيته قائلاً: ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً، إشعاراً بأن مِلاك هذه المبادىء كلها وضمان تطبيقها الوحيد هو الإيمان بالله عزّ وجلّ إيماناً صادقاً. فما لم يوجد الإيمان به فإن هذه المبادىء لن تنفذ كما ينبغي مهما آمن الناس بأنها حق لا مرية فيه. إذ إن مجرد الإيمان بالفضيلة لا يكفي دافعاً إلى التمسك بها وكم في الناس من يؤمن بأن الحق حق ومع ذلك فهو لا يقوى على تنفيذه، ويؤمن بأن الباطل باطل ومع ذلك لا يستطيع التخلّص من ظلّه:

والله سبحانه أعلم.

* * *

في القصص

(من سورة هود، من آية: ٣٥ إلى آية: ٤٩)

قال الله تعالى:

﴿ وأُوحِي إلى نوحٍ أنه لن يُؤمنَ من قومك إلا مَن قد آمَنَ فلا تبتئِس بما كانوا يفعلون. واصنعِ الفُلك بأعيُننا ووحْينا ولا تُخاطبني في الذين ظلموا إنهم مُغرَقون. ويصنعُ الفُلكَ وكلّما مرَّ عليه ملأٌ مِن قومِه سخِروا منه قال إنْ تسخَروا منّا فإنّا نسخرُ منكم كما تسخَرون، فسوفَ تعلمون من يَأتيه عذاب يُخزيه ويحلُّ عليه عذاب مُقيم. حتى إذا جاء أمرُنا وفارَ التنُّورُ قُلنا احمل فيها من كلٍّ زوجَين اثنين وأهلكَ إلا مَن سبق عليه القولُ ومَن آمنَ وما آمن معه إلا قليل. وقال اركبوا فيها بسمِ الله مَجريها ومُرساها إنَّ ربي لغفور رَحيم. وهي تجري بهم في موجٍ كالجبال ونادى نوح ابنَه وكان في مَعْزلٍ يا بُنيَّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين. قال سآوي إلى جبلٍ يَعصِمُني من الماء قال لا عاصِمَ اليوم من أمر الله إلا من رَحِمَ وحالَ بينهما الموجُ فكان من المُغْرَقين. وقيل يا أرضُ ابلعي ماءَكِ ويا سماء أقلِعي وغِيضَ الماءُ وقُضي الأمرُ واستوتْ على الجُودِيِّ وقيل بُعداً لِلقومِ الظالمين. ونادى نوحٌ رَبَّه فقال رَبِّ إنَّ ابني من أهلي وإنَّ وعدكَ الحقُّ وأنت أحكمُ الحاكمين. قال يا نوحُ إنه ليس من أهلِكَ إنّه عملٌ غيرُ صالِح فلا تسألْن ما ليس لك به عِلم إني أعِظُك أن تكون من الجاهلين. قال ربِّ إني أعوذُ بك أن أسألك ما ليس لي به عِلم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسِرين. قيل يا نوحُ اهْبط بسلام منّا وبركات عليكَ وعلى أمم ممّنْ معكَ وأممٌ سنمتِعُهم ثم يمسُّهم منّا عذابٌ أليم. تلك من أنباءِ الغيب

نوحيها إليك ما كنت تعلمُها أنت ولا قومك من قبلِ هذا فاصبرْ إنّ العاقبةَ للمتقين ﴾.

* * *

تعريفٍ عام بالآيات:

هذه الآيات تمثل مشاهدَ من قصة نوح عليه السلام مع قومه، وإنما تركنا المشهد الأول منها فقط، وهو الذي يصوّر فيه البيان القرآني الحوار الذي كان بين نوح وقومه وأسلوبَه في دعوتهم إلى الله عزّ وجلّ. وإذا تأملت هذه الآيات التي نقلناها لك وجدتها تتألف من خمسة مشاهد ـ والقصة القرآنية كما قد علمت تضع أمامك مشاهد من صورها، أكثر من أن تخبرك بمعانٍ من أحداثها.

تجد في المشهد الأول مظهر الغضب الإلهي على قوم نوح بعد أن طالت دعوتهم إلى الإيمان بالله دون جدوى كما تجد فيه أمْرَ نوح بأن ينصرف إلى إعداد سفينة.

وتجد في المشهد الثاني صورة من سخرية قومه به وهو عاكف على صنع السفينة.

وتجد في المشهد الثالث صورة من أحداث الطوفان وكيف أخذت السفينة تمخر بالمؤمنين من عباد الله جبالاً من الأمواج.

وتبصر في المشهد الرابع سكون الغضب واختفاء الماء وهدوء الدنيا وعودة كل شيء إلى ما كان.

أما المشهد الخامس والأخير فتبصر فيه مناجاة نوح لربه بشأن ابنه ثم هبوطَ الناس إلى دنيا أعمالهم وعيشهم مرة أخرى.

هذا تعريف سريع بالآيات ومحتواها وموقعها مما قبلها. أما تفصيل ذلك ففيما يلي:

شرح الآيات:

* تضعنا الآيتان الأوليان أمام أول مشهد من الأحداث العظيمة في هذه القصة، وذلك بعد أن مرَّ دهر طويل على نوح وهو يدعو قومه إلى الله ويناشدهم الانصياع إلى منطق العقل ووحي الضمير، دون جدوى: ﴿ وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴾ فقد أخبر الله إذاً أنه لا مطمع في إسلام أحد من قومه بعد اليوم، فلينفض يده من الاهتمام بشأنهم، ولا يحزن عليهم بما يظلون عاكفين عليه من غواية وضلال.

وليس هذا فقط، بل إن عليه أن ينصرف عن دعوتهم بعد اليوم، وعليه أن يشرع في صنع سفينة!..

ولكن كيف يصنع السفينة وهو لم يمارس هذا العمل من قبل، وكيف يتأتى أن يفعل ذلك باطمئنان وفي سلام، وإن قومه الذين لم ينفكوا يؤذونه سيفسدون عليه عمله؟!.

والجواب تراه في قوله عزّ وجلّ: ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ﴾ أي اصنعه ولا تُبالِ بسخرية قومك، فإنما ستصنعه متلبساً برعايتنا وحفظنا؛ ولا تؤرق الفكر في مشكلة جهلك بصنعه، فإنما ستصنعه من وراء وحينا وإلهامنا.

ويختم الوحي الإلهي خطابه لنوح بقوله عزّ وجلّ: ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ لا تكلمني في شأنهم باسترحام ودعاء بعد اليوم. فقد قضي الأمر بإغراقهم وسينفذ قضاء الله فيهم وشيكاً. ولبيان ضرورة نفاذ هذا القضاء عبّر بصيغة الماضي: إنهم مغرقون.

* وينطوي هذا المشهد، ليظهر من ورائه مشهد آخر، تبصر فيه نوحاً عليه السلام وهو منهمك في صنع الفلك وإعدادها. وانظر كيف يصوِّر البيان القرآني هذه الصورة في قوله عزّ وجلّ: ﴿ ويصنع الفلك.. ﴾ هكذا، بصيغة المضارع الحاضر، إحياءً للصورة في الذهن وتحضيراً للمشهد أمام المخيلة.

ثم نبصر في هذا المشهد قوم نوح وهم يمرون، جماعة إثر أخرى،

يضجّون سخرية به وبعمله الجديد هذا. ولك أن تتصور ما شئت من مظاهر السخرية وأقاويلها، فالقرآن ترك تصوّر ذلك لخيالك، وتأمل في ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ وكلما مرَّ عليه ملأ من قومه سخروا منه ﴾ جملة حالية تصور لك الأمر مستمراً متكرراً؛ ذلك أنهم رأوا في عمله هذا مادة جديدة هائلة للسخرية، خصوصاً وإنه يقوم بهذا العمل في مكان لا حاجة ولا محل فيه للسفن إذ كانت القصة ما بين بلاد الشام والعراق؛ فهم كلما مرّوا به وقفوا عنده يسخرون منه. ولكنه لم يكن يزيد في جوابه لهم على أن يقول ـ وهو منكبٌّ على عمله ـ: إن تسخروا منّا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون، أي سوف تجدون عاقبة سخريتكم هذه بلاء يتلبس بكم.

ثم يقول: مؤكداً المعنى المقصود بقوله، فإنّا نسخر منكم: ﴿ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحلُّ عليه عذاب مقيم ﴾ أي فسوف ينكشف لكم الحجاب عن الفريق الذي يفجؤه عذاب يخزيه في الدنيا ثم ينزل به عذاب لا ينفك عنه في الآخرة. ولك أن تعتبر «من» في الجملة موصولة في محل نصب مفعولاً لتعلمون، ولك أن تعتبرها استفهاماً سدّت مع خبرها الذي بعدها مسدّ مفعول تعلمون.

* ويُطوى هذا المشهد أيضاً، وتمرّ أحداث لا تتكلم عنها الآيات ولا تعرِّج عليها، اعتماداً على سير المخيلة والفكر؛ فقد انتهى صنع السفينة وفرغ نوح منها ولبث ينتظر الميعاد الذي لن يتخلف لحظة واحدة عن أجَلِه المحتوم، حيث يظهر المشهد الرابع مع قوله تعالى:

﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كلٍ زوجين اثنين.. ﴾ الآية.

فـ﴿ حتَّى ﴾ هذه، تشير كما ترى إلى الأحداث المطوية بين المشهدين، أي وظل نوح عاكفاً على صنع السفينة ومرّ زمان على ذلك، حتى جاء الميقات المحدد في علم الله، وفار التنور.

والتنور معروف، والماء لم ينبع من التنور وحده بل فاض من أنحاء الأرض كلها، ولكنه إنما اكتفى بالنص عليه وحده، إشعاراً بالغاية ودلالة على

الماء إذا كان قد فار من منبع النار، وهو التنور فلأن يفور ويفيض من عامة الأماكن الأخرى أحرى وأجدر.

فعندما تفجرت الأرض بالمياه أوحى الله إلى نوح أن يحمل في السفينة من كل صنف من أصناف الحيوانات زوجين اثنين، أي ذكراً وأنثى، والعرب تسمي كل واحد من اثنين لا يستغنيان عن بعض زوجاً يقولون: زوجا نعل وزوجا حمام.

كما أوحى إليه أن يحمل فيها أفراد أهله، إلا من سبق في علم الله استمراره على الضلال منهم، وهو ابنه وامرأته، وأن يحمل فيها عامّة المؤمنين به، ويلتفت البيان القرآني هنا، عن سياق القصة ليخبر قائلاً: وما آمن معه إلا قليل، وفي هذا الالتفات دلالة مؤثرة دقيقة يشعر بها الحسّ وتتأثر لها النفس ويحزن لها القلب!..

وأقبل نوح إلى أهله والمؤمنين من قومه يقول لهم: اركبوا فيها متّكلين على الله الذي آمنتم به، ولا يهمنّكم كيفية سوقها الذي ليس فيكم من يتقنه ولا سبيل اتجاهها ورسوّها الذي لا تعرفونه، فإن السائق والموجّه هو الله، بأمره تجري وبأمره سترسو.

فاركبوا فيها، جملة مستقلة؛ وباسم الله مجريها، جملة مستقلة أخرى من مبتدأ متأخر وخبر مقدم.

ولا شأن للبيان القرآني بوصف كيفية الركوب أو كيفية تلافي الحيوانات المختلفة، فمجرى القصة القرآنية كما يريده القرآن لا غرض له بشيء من ذلك. وعلى كلٍّ فقد تمّ ما أراده الله. وركب المؤمنون في السفينة وتلاقى فيها من كل صنف من الحيوانات المختلفة زوجان اثنان، وجرى الفلك يمخر عباب بحر لا عهد للبشرية به.

ويصف البيان الإلهي هذا المشهد بقوله: ﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال﴾ وتأمل كيف صوّر تلك الأمواج التي هي من العلو والضخامة كالجبال، في صورة طريق تجري فيه السفينة، وفي هذا بيان لمدى طغيان الماء

على الأرض وبيان لمدى تغلّب السفينة بحفظ الله من ذلك الطغيان الهائل!.

ولنتأمل الآن في هذا المشهد المؤثر: نوح على ظهر السفينة، وابنه في خارجها بعيداً عنه، وقد اعتلجت رحمة الأبوّة في قلب الوالد الذي يريد لابنه الخير والنجاة، فناداه من بعيد: يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين.

ويجيبه الابن من معزله البعيد غير مبالٍ بتأثر الوالد وشفقته: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء أي سأعتصم من الطبيعة بالطبيعة، ومهما كان من طغيان الماء فإن في طبيعة الجبال أعظم معتصم منها!.. وذلك هو منطق الإلحاد، لا يُبصِّر صاحبه مما هو أمامه إلا وراء أرنبة أنفه.

ويصور القرآن ردّ الوالد عليه في جملة فيها الأسى والحزن، وفيها منطق الإيمان يردّ على غرور الجحود والإلحاد: لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم. لم يقل لا عاصم اليوم من الماء؛ على نحو ما قاله ابنه، إشعاراً بأن المشكلة ليست مشكلة ماء. إنها مشكلة أمر الله عزّ وجلّ خالق كل شيء والمسيِّر لكل شيء، فهيهات أن تجد معتصماً من أمر الله في جبل أو أرض أو سماء، اللهمّ إلا من رحمه الله بهدايته، فمعتصمه هو رحمة الله فقط، فإلاّ في قوله: ﴿ إلا من رحم ﴾ بمعنى لكن، أي لكن من رحمه الله فهو معصوم برحمته.

ويسدل البيان الإلهي ستاراً على هذا الحوار بين منطق الإيمان وغرور الإلحاد، إذ يقول بعد ذلك: وحال بينهما الموج فكان من المغرقين.

ولكأني أرى في هذه الجملة الرهيبة صواعق من مظهر الغضب الإلهي وهي تنقض على الجهل المتعالم والغرور المتطاول تسحقه فإذا هو أثر بعد عين.

إن الجملة لتقول بأبين دلالة: ما كاد هذا المسكين يتم النطق بكلامه المغرور وما كاد يطرف ببصره بحثاً عن الجبل الذي سيعتصم فيه، حتى أسرعت إليه موجة فالتقمته، وكأن لم يكن!.

* وفي غمرة هذه الأحداث التي تصورها الآيات، وبين صخب الأمواج التي تنحسر وتمتد في بحر هي الأرض كلها ـ ينطوي هذا المشهد فجأة، لترى من ورائه مباشرة عودة الهدوء إلى الدنيا ورجوع كل شيء إلى نظامه السابق:

فقد هدأت الزمجرة وسكنت العاصفة وولدت الدنيا كما كانت من جديد.

وتعال فلنتأمل في اللوحة الإلهية التي رسمت هذا المشهد: ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي؛ وغيض الماء، وقضي الأمر، واستوت على الجودي، وقيل بعداً للقوم الظالمين ﴾.

إن هذه الجمل القرآنية العجيبة، تصور لك هذا الكون الهائل الفسيح من سماء وأرض وبحار وجبال في صورة أنموذج من القطع المركبة إلى بعضها مما يوضع بين يدي الأطفال، جاءت يد إنسان فنثرتها وفصلت أجزاءها، ثم ما هو إلا أن عاد فركّبها إلى بعضها كما كانت في أسرع وقت.

وهي تصوِّر لك معنى الإرادة الإلهية وسلطانها الرهيب المنبسط على الكون كله بل القابض عليه كله، تتصرف به كما تشاء ليس في حسابها أي معنى لكبير وصغير أو لعظيم وحقير. ألا ترى كيف علّقت الآية رجوع كل شيء إلى ما كان عليه بعد أن التقت مياه السماء والأرض على طوفان هائل مخيف ـ على كلمة صغيرة هي: ﴿ وقيل ﴾ لتصوِّر لك سهولة الأمر وأنه لا يحتاج إلا لهذا الأمر الإلهي الذي به قيام الدنيا وزوالها.

ثم انظر إلى دقائق التعبير المصوّر:

﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ﴾ أرأيت أنه لم يقل: جففي ماءك، مثلاً، مع أنه هو التعبير المتفق مع طبيعة الأرض وشأنها، وإنما قال: ابلعي ماءك، ليصوِّر لك بأن الأرض لما اتجهت إليها إرادة العزيز الخبير انقلبت مسامها وشقوقها إلى أفواه فاغرة تبتلع بها المياه ابتلاعاً! فهي لم تنفّذ الأمر بالطبيعة المألوفة لها وإنما بالانقياد لأمر خالقها جلّ جلاله.

﴿ ويا سماء اقلعي ﴾ وأنت إذا تأملت في كلمة اقلعي ـ وهي بمعنى كفّي وأمسكي ـ تصورت كم كانت منفتحة على مياه تنصبّ إلى الأرض وحسبك أن تتأمل الآية الأخرى في وصف ذلك: وفتحنا أبواب السماء بماء منهمر، لتتصور هول تلك المياه المنهمرة من أبواب السماء.

ثم انظر كيف أسند الخطاب إلى كلٍّ من السماء والأرض مع أنهما مخلوقان

جامدان، ليصور لك سرعة استجابتهما لأمر الله عزّ وجلّ حتى كأنهما منقادتان بسماع الأمر وفهم الخطاب.

﴿ وغيض الماء، وقضي الأمر، واستوت على الجودي ﴾. ثلاث جمل فيها مظهر الاستجابة السريعة لأمر الله، فقد غيض الماض أي فلم يبق إلا ما كان على وجهه من قبل. وقضي الأمر فهلك أولئك الكافرون والجاحدون ونفذ فيهم حكم الله عزّ وجلّ، وها هي السفينة قد رست على جبل الجودي[1].

﴿ وقيل بعداً للقوم الظالمين ﴾. وهو قيلٌ ينطق به حال الكون كله بعد انقشاع الغمّة وزوال المصيبة، فقد فتح الكون عينه ليرى كيف ذهب أولئك الظالمون في تلافيفها ومضوا مع مضيِّها، فقال بلسان الحال: بعداً للقوم الظالمين، أي ليزدادوا ابتعاداً وهلاكاً، وما ظلمهم أحد ولكنهم كانوا هم الظالمين.

* والتقط المؤمنون أنفاسهم بعد انقشاع البلاء، وأخذوا ـ وقد استقرت السفينة بهم هادئة فوق الجودي ـ يتأملون معتبرين، وتذكّر نوح ابنه، وتمنى لو كان فيمن سلمهم الله من هذه الطامّة، وتذكّر وعد الله إيّاه بإنجاء أهله فرفع رأسه يقول في ضراعة وأدب:

﴿ ربّ إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ﴾.

أسلوب في غاية الأدب، إنه يسأل ولكن سؤالاً مطوياً ضمن ما يقرره من وصف العدالة والحكمة الباهرة لله جلّ جلاله، أي فلماذا لم يكن من الناجين وقد وعدتني ـ ووعدك الحق ـ بأن يكون أهلي في المرحومين من ذلك البلاء؟.

وجاءه الجواب وحياً من الله عزّ وجلّ: يا نوح إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح.

أي إنه ليس داخلاً في أهلك أصلاً، لأن مدار إكرام قرابتك إنما هو على الإيمان الذي هو الأصل والسبب في إكرامهم، فإذا انتفى الإيمان الذي هو

---

(١) هو جبل في شمالي العراق داخل في الحدود التركية.

الأصل لم يبق أثر للأهل الذي هو الفرع.

أو يكون المعنى: إنه ليس داخلاً في أهله الذين وعد الله بنجاتهم، إذ هو خارج عنهم باستثناء إلا من سبق عليه القول.

ثم علّل نفي الأهلية عنه بجملة استئنافية ليكون فيها معنى التعليل والإخبار معاً فقال: إنه عمل غير صالح، أي إنه ذو عمل غير صالح، وإنما أخبر عنه بالعمل نفسه، مبالغة في إلصاق السوء به ولبيان أن العمل السيء لم يكن يفارقه.

وإذ قد وقفت على جليّة الأمر فلا تسألْن سؤال طلبَ ما ليس لك به علم، أي لا تطلب مني شيئاً لا تعلم أن الحكمة متفقة معه أم لا، فليس كل ما يظهر لك هو وحده الحقيقة.

إني أعظك أن تكون من الجاهلين، أي أنهاك عن مثل هذا وأحذرك لئلا تكون من الجاهلين، أو كراهية أن تكون من الجاهلين.

وأمام جواب الله لنوح عليه السلام وقف متذللاً لحكمه وقضائه ملتزماً حدود العبودية والرضى قائلاً: ربّ إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم، وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الجاهلين. وأنت ترى كأنه ذنب عظيم ذاك الذي فعله نوح بسؤاله فهو يستغفر ويتوب منه، وما هو بذنب في الحقيقة ولكنه رتبة المقرّبين تقتضيهم مزيداً من الرهبة والإجلال وهذا هو شأنهما في النفس.

والآن.. وقد هُيّئت الأرض مرة أخرى للعيش فوقها وعادت أسباب الرزق والكدح من فوقها كما كانت من قبل، فليهبط نوح ومن معه من الشاهق الذي أرستهم السفينة عليه إلى الأرض سالمين مطمئنين ينعمون بخيراتها وثمارها، يشترك في ذلك الصالح والطالح إلى أن يأتيهم ميقات يوم معلوم، ففيه يلاقي كلٌ جزاءه وأجره. وانظر إلى البيان القرآني كيف يقرر هذا المعنى:

﴿ قيل يا نوح اهبط بسلام منّا وبركات عليك وعلى أمم ممّن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسُّهم منّا عذاب أليم ﴾.

وإنما قال: وعلى أمم ممّن معك ولم يقل: وعلى من معك، لأن الحديث

ليس عن الذين كانوا مع نوح وحدهم، وإنما الحديث عنهم وعن الذين سيتكاثرون من ذريّاتهم، وإن فيهم المؤمن وغيره، فخصّ السلام والبركة بالبعض وهم المؤمنون. وليس الذي يلقاه الكافرون أيضاً من أسباب العيش والخير سلاماً وبركة في الاصطلاح الإلهي، وإنما هو «تمتيع» أي ترك وإمهال مؤقت، حيث ستطوى الحياة عمّا قريب ويُقبل الكل إلى الرحمن عباداً صاغرين، فهنالك يُقام الحساب والميزان للجميع.

* * *

في الحِجَاجِ وَالنِّقَاشِ

(من سورة النمل من آية: ٥٩ إلى آية: ٦٦)

قال الله تعالى:

﴿ قُلْ الحمْدُ للَّهِ وسلام على عِبادِهِ الذين اصْطفى، آللَّهُ خير أمَّا يُشرِكون * أمَّنْ خلَق السَّمواتِ والأرْضَ وأنزَل لكم مِن السَّماء ماءً فأنْبَتْنا به حدائِقَ ذاتَ بهجةٍ مَا كان لكُم أن تُنبتُوا شجرها أإلَهٌ مع الله بل هُم قوم يَعدلون * أمَّن جعَلَ الأرْض قراراً وجعلَ خِلالها أنْهاراً وجعل لها رواسِيَ وجعل بيْنَ البحرَينِ حاجزاً، أءله مع الله بل أكثرُهم لا يعْلمون * أمَّن يُجيبُ المضْطَرَّ إذا دَعاه ويكْشِفُ السوء ويجعلكُم خُلَفاء الأرْض، أءلهٌ معَ الله، قليلاً ما تذَّكرون * أمَّنَ يهديكم في ظلماتِ البرِّ والبحْر ومن يُرسِلُ الرياحَ بُشْراً بيْنَ يدَيْ رحْمتِهِ أءله مع الله، تعالى الله عمّا يُشرِكون * أمَّن يَبْدأُ الخلق ثُمَّ يُعيدهُ ومن يرْزُقُكم من السماءِ والأرض، أءله مع الله، قُلْ هاتُوا برْهانَكم إن كُنْتُمْ صادِقين. قُل لا يعلمُ من في السموات والأرْضِ الغيْبَ إلاَّ اللَّهُ وما يشْعُرون أيانَ يُبعثُون. بل ادَّاركَ عِلمُهم في الآخرة بل هم في شكٍّ منْها، بل هُم منْها عَمُون ﴾.

تعريف عام بالآيات:

تأتي هذه الآيات بعد عرض مفصّل لقصص بعض الأمم السابقة مع أنبيائهم الذين بعثوا إليهم وكيفية إهلاك الله لتلك الأمم بسبب عتوّهم وطغيانهم في الأرض.

ولما كان في هذه القصص عبرة لأمة محمد ﷺ وفيها الدليل على

وحدانية الله تعالى ووجوده والرد على الباطل الذي يتمسك بـه الكافـرون والجاحدون ـ عقب الله عليها بالالتفات إلى هؤلاء الكافرين يستنهض عقولهم للعبرة والتأمل، ويناقشهم في باطلهم الذي يحتضنونه، بمختلف البراهين والأدلة القاطعة التي يرونها من حولهم.

والآيات تعرض أربعة أصناف من الأدلة تناقش الكافرين على أساسها:

الصنف الأول: أدلة تتعلق بمجموع الكون بما فيه من سماوات وأرض.

الثاني: أدلة تتعلق بكثير من خصائص الأرض وسماتها التي يبصرونها بأعينهم أو عقولهم.

الثالث: أدلـة هامة تتعلق بذواتهم وأنفسهم والنِعَم الحاصلة لهم.

الرابع: دليل النشأة الأولى، وما يستلزمه من دليل الإعادة بعد الموت.

وكما ترى، فإن أسلوب النقاش والاحتجاج على الكافرين بهذه الأدلة، قائم على أساس الاستفهام المتكرر وما يليه من أجوبة عنهم عليها، لما فيها من تقريع وتأنيب ودفع إلى التأمل.

شرح الآيات:

ـ تأتي الآية الأولى في هذا النص، فاصلة بين قصص الأنبياء السابقين التي ظلّت الآيات السابقة تعرضها من أول السورة، وما يليها من مواجهة الكافرين بالمناقشة والمحاجّة.

والخطاب في هذه الآية الفاصلة موجّه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، يأمره فيها ـ وقد سمع ما أخبر به عن قصص تلك الأمم التي حاقَ بها الهلاك والدمار وأولئك الأنبياء الذي لاقوا من أقوامهم صنوف الإيذاء ـ أن يحمد الله عزّ وجلّ على أن خصّ أمته هذه بالرحمة واللطف فقضى أن لا يهلكها بمثل ما أهلك به أولئك الآخرين، رغم تشابه الإعراض والإيذاء في كثير من الحالات، وأن يسلّم على أولئك الذين اصطفاهم الله لتبليغ رسالته فعُذبوا واضطهدوا ولم يمنعهم ذلك من القيام بأمر الله عزّ وجلّ.

ثم يأمره بعد هذا أن يتوجه إلى المشركين الذين من حوله سائلاً: هل الإيمان بالإله الحقّ الذي فعل كل ما قد ذكر بالأمم السابقة أفضل أم الإيمان بما تؤلهونه من المخلوقات أيّاً كانت؟ وهذا الاستفهام جارٍ على قصد التقريع للمشركين وتسفيه آرائهم السقيمة، وإلا فمن الواضح أنه لا يوجد أيُّ تلاقٍ في جنس الخيرية بين الأوثان التي يؤمنون بها والإله الواحد جلّ جلاله، حتى يتصور معنى التفاضل والسؤال عن الأفضل منهما، فهو كما تقول لمن سلك مسالك الغواية والشقاء: ويحك هل الشقاء خير أم السعادة؟!

ولما كانت هذه الخيرية، رغم وضوحها، خفية عن أذهان الكافرين، أو كالخفية بسبب تكبرهم وعنادهم في الباطل الذي لا يريدون التحوّل عنه، عقّب الله هذا الاستفهام بآيات تكشف عن مظاهر ألوهية الله عزّ وجلّ وتفرُّده في الخلق والإبداع والتحكّم في مقاليد الكون، ليتّضح للمشركين أيّهما خير: الله عزّ وجلّ أم ما يؤلهونه من المخلوقات أيّاً كانت؛

ـ ﴿أَمَّنْ خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها، أإله مع الله، بل هم قوم يعدلون﴾.

هذه أول آية من هذه الآيات التي سيقت مساق الكشف عن بعض مظاهر ألوهية الله جلّ جلاله، تأتي بأسلوب الاستفهام ليكون فيها معنى الاحتجاج والمناقشة والدفع إلى التأمل وإعمال الفكر.

وأم التي في أولها، أم المنقطعة، بمعنى بل، وهي للإضراب الانتقالي عن الكلام السابق إلى سؤال آخر: ﴿مَن خلق السموات والأرض وأنزل لكم﴾.. الآية.

والسماوات هنا كل هذه الأجرام العلوية بما فيها من كواكب وغيرها، والسماء في قوله: ﴿وأنزل لكم من السماء ماء﴾ هو جهة العلو، إذ كل ما علاك فأظلّك فهو في اللغة سماء.

وكان من مقتضى نسق الآية أن يقول: فأنبت به حدائق، فلماذا وقع الالتفات عن ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم؟

إن الذي اقتضى ذلك هو أن أحداً لا ينسب إلى نفسه خلق السماوات وإنزال الأمطار، فحسْب السؤال عن خالقها ومنزِّلها، بهذا الأسلوب، منبهاً إليه جلّ جلاله. أما إنبات الزرع والأشجار فكثيراً ما ينسبه صاحب البذر والسقي إلى نفسه فيقول: أنبتُّ الزرع والبستان، فناسب الالتفات به إلى ضمير المتكلم تأكيداً لاختصاص الإنبات بذاته تعالى وإشعاراً بأن ظهور النبات يشق باطن الأرض بألوانه الزاهية وطعومه المختلفة وخصائصه المتنوعة إنما هو من فعل الخالق جلّ جلاله، ومن أجل المزيد من تقرير هذه الحقيقة قال بعد ذلك: ما كان لكم أن تنبتوا شجرها.

وجواب الاستفهام محذوف، دلَّ عليه حكم العقل والكون، على أن الذين ينتظر منه الجواب هم المخاطبون. ولقد رتّب الله على هذا الجواب المعلوم استفهاماً آخر متفرعاً عنه ومرتبطاً به: أءله مع الله، أي أإله آخر مع الله جلّ جلاله.

ويتلفت الخطاب عنهم بعد ذلك، مضرباً عن حديثه معهم وسؤاله إيّاهم، ليحكي صفتهم وحالهم العجيبة للآخرين قائلاً: بل هم قوم يعدلون أي كأنه يقول ملتفتاً: ولكن ما الجدوى من نقاشهم والبحث معهم؟ إنهم قوم يعدلون عن الحقّ، أو هم يعدلون بالله غيره من الأوثان والمخلوقات!.

* أمَّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً، أإله مع الله، بل أكثرهم لا يعلمون.

إضراب آخر، أُريد به الانتقال إلى دليل كوني آخر متعلق بكثير من خصائص الأرض وسِماتها الواضحة من حولهم وأمام أعينهم. أي لنترك أمر السماوات وحديث المطر والإنبات إلى حقيقة أخرى. من هذا الذي جعل لكم الأرض قراراً؟ وكلمة «قراراً» هذه تعني كل ما قد أودع الله الأرض من الخصائص التي تجعلها قارّة بنفسها وتجعل الناس متمكنين من القرار عليها، سواء فيما يتعلق بلينها وصلابتها وطبيعة الإنبات المودعة فيها وضبط ثقلها وخفّتها ومدى بُعد الشمس عنها، ونظام الجاذبية التي فيها، وغير ذلك مما

لا يزال العلم يكتشفه وينتبه إليه، كلُّ ذلك عبّر عنه البيان الإلهي بالكلمة الجامعة: قراراً.

ومن جعل على وجه الأرض أنهاراً تتخللها كتخلّل الشرايين في الجسد إذ تمدّه بالقوة والحياة؟

ومن أقام عليها جبالاً ثوابت ثقالاً تمنعها أن تميد بأهلها، وتتكون في باطنها كنوز المعادن وتحتفظ في جوفها بالينابيع الثرة من المياه، وعبّر عن الجبال بكل ما فيها من الصفات، بالرواسي وهي جمع راسية، أي مستقرة وثابتة، وأنت لا تطلق هذه الكلمة على كل ما يستقر إلا إذا كان ثقيلاً جسيماً، فلا تقول أرسيت الكأس مثلاً، وإنما تقول أرسيت الصخرة أو البناء أو نحو ذلك.

ومن جعل بين البحرين حاجزاً؟ وتثنية البحرين من التغليب، أي البحار والأنهار، ومعلوم أن الحكمة الإلهية اقتضت أن تكون البحار أخفض من مستوى الأنهار حتى لا تنصبّ فيها مياه البحار فيفسد طعمها، وحينما تنصبّ مياه الأنهار في البحر فإنها تتخذ لنفسها في عرضه طريقاً مستقلاً يمتد أشواطاً كثيرة دون أن يمتزج كلٌ من الماءين بالآخر. والذي اقتضى ذلك اختلاف طبيعة الماءين التي قدّرت بخلق الله وحكمته حتى تؤدي كلٌ من البحار والأنهار خدمات نوعية مستقلة لهذا الإنسان.

وتقف الآية هنا أيضاً عن الإجابة على هذا السؤال انتظاراً لإجابة المخاطبين، وإتاحة للفكر المتأمل أن ينصت خاشعاً إلى الجواب ينبعث من فم الكون كله: إنه الله وحده.

ويأتي السؤال مرة أخرى مرتباً على هذا الجواب المعروف: أإله مع الله؟!. أبعد هذا كله يوجد أي إله آخر إلى جانب الله جلّ جلاله؟

ويلتفت الخطاب عنهم مرة أخرى ليحكي جاهم العجيبة للآخرين: بل أكثرهم لا يعلمون؛ ولما كانت المسائل المستفهم عنها يتوقف الفهم والتقدير التام لها على العلم، قال في حكاية جاهم المسبّبة لغرورهم وجحودهم: بل أكثرهم لا يعلمون. وفيه مالا يخفى من حمل الناس على التأمل في دقائق الكون

ومعرفة ما يقوم عليه من النظام ودقة الخلق والصنع.

● ﴿ أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض، أإلٰه مع الله، قليلاً ما تذّكرون ﴾.

وينتقل الحديث بإضراب ثالث إلى أدلة من نوع آخر، قائمة في كيانهم ومستقرة في نفوسهم.

إنَّ من خصائص الإنسان أنه إذا نزلت به شدة من الشدائد وحزبه أمر من بلاء أو مصيبة، والتفت من حوله فافتقد الوسيلة المنقذة والصديق المُساعد وضاق عليه الخناق، أخذ يرمق السماء بطرفه يسأل الله عزّ وجلّ في ضراعة وذل، ولعلّه كان لا يعرف الله في أوقات الصفو والرخاء.

وهذه الطبيعة الكامنة في الإنسان من أعظم الأدلة على أنه مفطور في حقيقته على العبودية لله عزّ وجلّ والإيمان به، وأن كل انحرافاته التي تبعده عن هذه الفطرة إنما تأتي بسبب غاشية من الغفلة أو سكرة من الكبرياء الكاذب أو الشهوات المتأججة، وسرعان ما يرتدّ إلى فطرته الأصيلة إذ يهتز كيانه بسبب بلاء خانق أو كرب مطبق فيتساقط عنه كل ما قد تعلق به من غواشي الغفلة ومسكرات الشهوات والأهواء.

فمن الذي يستجيب لهذا المضطر إذا دعاه متضرعاً له آيباً إليه؟ والسؤال، فيه تذكير كما ترى بهذه الفطرة الإنسانية، وفيه بيان أن الإنسان إذا أصابه ضرٌّ شديد ضلَّ عنه كل من يدعوه ويعتمد عليه إلا الله جلّ جلاله، و«أل» في المضطر للجنس لا للاستغراق، فلا يلزم أن تكون الاستجابة من الله عامّة لكل الداعين من المضطرين.

ومن الذي يكشف السوء عنكم بكل أصنافه ومظاهره؟

ومن الذي يجعلكم خلفاء الأرض؟ أي تتوارثون سكناها والتصرّف فيها جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن؛ وكم في هذه المظاهر من دلائل العظمة الإلٰهية في تنظيم حياة هذه الخليقة على وجه الأرض!. دفعة من بني الإنسان تأتي إثر أخرى، هذه تأتي من باب الولادة، وتمضي الأخرى من باب الموت. ولو

تجمعت هذه الدفعات البشرية مع بعضها لضاقت بها الأرض وفسد نظام الحياة، وتخلّفت الحكمة الكبرى من الإيجاد والخلق. وانظر، فإن في هذه الجملة المختصرة المثيرة للفكر: ويجعلكم خلفاء الأرض، تعبيراً عن هذه الحقيقة كلها، فما أعجب البيان القرآني وما أروع!..

وتقف هذه الآية أيضاً عن الجواب الذي تنطق به الفطرة الإنسانية في أوضح بيان.. ليكرر السؤال المترتب على الجواب المعرف: أإله مع الله؟ وهنا أيضاً يحكي حالتهم التي تصدّهم عن الإيمان بالبدهيات، ولكنه لا يقول هذه المرة: بل أكثرهم لا يعلمون، كما ذكر في الآية السابقة، ذلك لأن هذه الدلائل القائمة في فطرة الإنسان وكيانه، لا تحتاج إلى علم مجهول، وإنما تحتاج إلى تذكّر شيء معلوم متلبس بالإنسان نفسه، ولذلك قال: قليلاً ما تذكّرون، أي تذكراً قليلاً ما تذكّرون: وهو تعبير خاص أُريد به عدم التذكّر مطلقاً.

● ﴿ أمَّن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته أإله مع الله، تعالى الله عمّا يشركون ﴾.

إضراب انتقالي إلى نوع آخر من الأدلة يحاجج بها الجاحدين ويناقشهم.

من المعلوم أن الإنسان يتعرض لتيهٍ من الضلال تتضاءل عنده حيلة الإنسان ويظهر فيه ضعفه في حالتين اثنتين: عندما يغشيه الظلام المطبق بليل في فلاة، وعندما يتيه في زرقة لا حدود لها من زرقة البحر والسماء، وما رؤي الإنسان أقرب إلى التعرّف لحقيقته الضعيفة وعبوديته لله عزّ وجلّ، منه في إحدى هاتين الحالتين. فمن الذي يهدي الإنسان في كلٍّ من هاتين الظلمتين. ولك أن تفهم من الظلمات معناها الحقيقي وذلك إذ يلتقي تيه كلٍّ من الفلاة والبحر بظلمة الليل البهيم، وأن تفهم منها معناها المجازي، إذ جعل مفاوز البرّ التائهة ولجج البحار الهائلة كأنها ظلمات مطبقة يضلّ فيها الإنسان ولا يقع على علم يتعلق به أو يهديه.

ومن يرسل الرياح بشْراً، أي مقدمة تبشّر بالخير، بين يدي رحمة الأمطار إذ يبعثها الله على الأرض لتخرِج ما في بطنها ولتقدِّم خيراتها لمن على ظهرها؟

والرياح تطلق على ما يأتي بالخير من المطر وغيره، فإذا قلت: ريح فهي ما يحمل في طواياه الشر على اختلاف درجاته وأشكاله ولقد كان من شأن النبي ﷺ كلما رأى هبوب الهواء أن يقول: اللهمّ اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً.

ويعيد البيان الإلهي نفس السؤال السابق: أإله مع الله؟ ويلتفت عن الخطاب لهم مرة أخرى، ليقرر تنزيه الذات الإلهية عن لغو الجاحدين وضلالهم قائلاً: تعالى الله عمّا يشركون:

* ﴿ أمَّن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾.

نوع آخر من الاستدلال والتنبيه، تنطوي فيه قصة هذه الخليقة في بدئها ومستقرها، وفيه ـ مع اختتام ألوان الحجاج والنقاش ـ إلماح بالإنذار والتهديد وتأكيد ليوم البعث والحساب.

والسؤال هنا عن ذاك الذي بدأ الخلق من العدم، والذي يعيده مرة أخرى إلى الوجود.

فأما الشطر الأول من السؤال فواضح، والشأن فيه أن يكون معلوماً لكل عاقل أنه الله عزّ وجلّ، أما الشطر الثاني، فيردّ عليه ـ في الظاهر ـ أن الجاحدين لا يؤمنون بالإعادة فكيف يتجه السؤال إليهم عن ذلك؟ غير أن التعبير القرآني يريد أن يوضح للأذهان المتأملة أن الإيمان بالخلق الأول يستلزم الإيمان بالإعادة، ذلك لأن الإعادة أهون من البدء فيما يقرره العقل، ولأن قصة هذه الحياة الدنيا تظل ناقصة، وتظل ـ بأحداثها ووقائعها ـ فصلاً واحداً من قصة طويلة. إذ في هذه الحياة طغاة لم يجدوا القصاص العادل في حقهم، وفيها مستضعفون مظلومون لم يصلوا إلى ما ينصفهم من ظالميهم. ولا ريب أن الذي أبدع هذه الخليقة وتركها تتصرف كما تشاء في حرية وإرادة، سوف يعيدها إلى حياة أخرى يسود فيها الحق ويستقر فيها العدل.

فمن أجل ذلك أظهرت الآية الرابطة المتمكنة بين الخلق الأول والإعادة الثانية.

ثم تسأل الآية: ومن يرزقكم من السماء والأرض، أي بأسباب سماوية وأرضية مرتبة على بعضها، وأنت تعلم أن إليهما مردّ كل الأرزاق التي يعيش بها الإنسان.

أإله مع الله بعد كل ذلك؟ ويأتي الالتفات عنهم هنا ليختم هذه الحجاج والبراهين السابقة كلها بقوله مخاطباً الرسول ﷺ: ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾.. أي هذه هي براهين وجود الله ووحدانيته وألوهيته يقرّها العقل ويدركها المنطق، فقدموا بدوركم براهينكم التي تعتمدونها في جحودكم وإنكاركم لهذه الحقائق.

هذا، ولك أن تذهب في إعراب «أمَّن» التي صدّرت بها الآيات السابقة، مذهباً آخر، فتعتبر من موصولة على الابتداء وتقدّر خبره على ضوء الجملة الأولى في أول الآيات: ﴿ آلله خير أم ما يشركون ﴾ فيكون المعنى: بل أألذي جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً.. خير أم ما يشركون. وتحلّل سائر الآيات الأخرى على هذا التقدير. وقد ذهب معظم المفسرين هذا المذهب في إعراب الكلمة.

غير أن الذي ألحظه من سياق الآيات، وأشعر به من ذوق المعنى ومقتضاه أن الطريقة التي اعتمدناها في إعراب الآيات من اعتبار «مَن» استفهامية، أقوى دلالة وأقرب استساغة وأبعد عن التكلّف. وإذا دارت الجملة بين التقدير وعدمه فعدم التقدير أولى، ومثله في القرآن قوله عزّ وجلّ في سورة المُلْك: ﴿ أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور ﴾.

* ولما ختم الحديث عن البراهين على وجود الله ووحدانيته بالحديث عن عود الناس إلى الحياة من بعد الموت، وكان في هذا ما يُنهض الجاحدين إلى استبعاد الحشر والمطالبة ببيان الأدلة والعلامات التي توضح ميقات ذلك اليوم وأجَله ـ قال جلّ جلاله مخاطباً نبيّه عليه الصلاة والسلام: ﴿ قل لا يعلم مَنْ في السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيّان يبعثون ﴾ أي ليس لأحد مطمع في الاطّلاع على ما استأثر الله بعلمه من المغيبات، ومن أهمها الميقات

المحدد في علم الله لقيام الساعة، وليس الإيمان بها متوقفاً عقلاً على معرفة زمانها وميقاتها.

* ثم تختم الآيات بهذه الآية الأخيرة التي فيها التحليل والوصف الدقيق للاضطراب الفكري الذي يطوف في أذهان الملحدين، وفيها التقريع العجيب لهم والسخرية بحالهم: ﴿ بل ادَّراك علمهم في الآخرة بل هم في شكٍّ منها، بل هم منها عمون ﴾.

ففي الآية ـ كما ترى ـ إضراب عن كل ما قد سلف من النقاش، ليقول من ورائه بأسلوب الحكاية عنهم: إن هؤلاء قد تجمعت لديهم أقصى ما يمكن أن يفهموه عن الآخرة وأدرك بعضه بعضاً، ووصلوا من ذلك إلى الغاية التي لا حاجة لهم عندها إلى علم جديد يُلقَّونه ويبصَّرون به؛ وهذا تصوير لبعض الحالات التي تعتري المُلحِد من الاعتداد بفكره وفهمه حتى ليخيل إليه أن قد تداركت وتجمعت في ذهنه الحقائق العلمية كلها.

ولكنه لا يلبث أن يضرب عن هذا الوصف، ليصفهم بحالة أخرى: بل هم في شكٍّ منها، أي إن الظنون والأوهام تأخذهم وتردّهم في أمرها فهم يتساءلون: ألعلّ ما يقوله المؤمنون هو الحق؟ لا ليس كذلك!. ولكن من المحتمل!.. وهو مظهر للاضطراب الفكري القلِق الذي يبعث في النفس عذاباً لا يتصور شدّته إلا مَنْ يعانيه. وهذا تصوير لحالة تنتاب الجاحد والملحد..

ثم ينتقل البيان إلى آخر وصف؛ هو الوصف الثابت الحق في شأنهم وهو مدار الحالات الأخرى التي تعتريهم: بل هم عنها عمون، إنهم من الآخرة في عماهة مطلقة يتخيلون معها ذبذبات الظلام علماً وفهماً، ويتصورون معها أنهم حينما يشكّون ويضطربون إنما يبحثون ويتأملون وهيهات منهم ذلك.

والله سبحانه أعلم.

* * *

كلمة أخيرة

والآن، وقد انتهينا من هذه السياحة العجلى في رحاب هذا الكتاب العظيم، ووقفنا على خلاصة سريعة من خصائصه ومظاهره ودقائقه - أريدك يا أخي القارىء أن تمحّص الفكر والرويّة والتأمل الحر في قصة هذا الكتاب ومصدره.

ألم تقف في كل ما قد مررت ووقفت عليه من خصائص، على ما يدلك أن هذا الكتاب ما ينبغي أن يكون من صنع بشر؟

ألم تدرك، فيما قد اطّلعت عليه من تاريخه وعلومه ومنهجه، أنه ما ينبغي أن يكون أكذوبة كذّب بها محمد ﷺ على ربّه، بعد أن غبر من حياته أربعين عاماً يتوقى فيها الكذب على الناس؟

ألم تستشعر في كل ما قد تأملته من نصوصه وآياته أنك من هذا الكلام أمام أحاسيس ومشاعر لا يمكن أن تأتي إلى النفس مما يتكلم به سائر البشر؟

ألم تدرك في أعماق وجدانك، حقيقة الإعجاز في هذا الكتاب؟

أسئلة، لا شك أن أيّ متأمل بفكر حر، لا يتردد في الجواب عليها بإيجاب قاطع.

فإذا كان كذلك، أفليس ما يوجبه العقل، ويفرضه كلُّ من المصلحة والمنطق أن تتدبر هذا الكتاب وتتهيأ لما قد وضعك في سبيله؟

أما إن هذه الحياة ستطوى عمّا قريب، وإن كل ما ترى من مغرياتها

وملاذها ليوشك أن ينتهي ويزول؛ وقَسَماً بخالق العقل الذي تميز به الإنسان، إن من وراء ذلك لحياة أخرى ستتفتح لها العين ويمتلىء بها الشعور ويفيض بها الإحساس، وما كان القرآن ليكذب على الناس في تأكيد هذه الحقيقة بشتى الأساليب المؤكدة. أفترى أن شيئاً من الأغراض أو الأهواء أو المقاصد المستكنّة في نفسك اليوم تغنيك إذ ذاك أو تفيدك فائدة ما؟!.

تخيل نفسك، وقد ولّى عنها الشباب، وولّت في أعقابها الكهولة، وجاءتك الحقيقة التي لا مردَّ لها ولا سلطان في الأرض يستذلّها: حقيقة الموت وسكرته، وسائل نفسك التي بين جنبيك: ماذا عسى أن تجني إذ ذاك من كل هذا الذي تكبل اليوم عقلك به، أيّاً كان مظهره وحقيقته ومرماه؟؟.

إن من الخير لك أن تحتاط.. وإن من أسمى أغراضك ومصالحك التي يجب أن تأخذ نفسك بها أن تتأهب لذلك اليوم، وإن من أهم ما يجب عليك، أن تقف على هوية نفسك وحقيقة ذاتك القائمة في خضم الكون المائج، فكم من إنسان يمشي مكبّاً على وجهه في الحياة، وهو يحسب أنه قد أبصر الحقيقة حيث ضلّ عنها الآخرون وهو إنما ضلّ عن نفسه فلم يقف على شيء من هويتها وحقيقتها، وسوف لا يستفيق إلى ذاته إلا بعد أن يتعثر ويكبو، وحينئذ ينظر بعين جديدة أخرى ويطّلع على حقيقة كانت غائبة عنه، ويتذكر الماضي الأليم، وأنّى له الذكرى؟

ثم فيمَ الابتعاد يا أخي القارىء عن الحق؟

أفتحسب أنه يحرمك سعادتك التي تحلم بها؟.. إن ذلك هو الوهم العجيب الذي يظل عالقاً برؤوس بعض الناس. إن الله عزّ وجلّ لم يشرع لعباده هذا المنهج الحق إلا إصلاحاً لشأنهم وتحقيقاً لسعادتهم. ومما لا شك فيه أن الجاحدين والملحدين في الدنيا يشقون حتى بالنعيم ويختنقون حتى بأسباب السعادة، وانظر تجد مصداق ذلك ماثلاً أمامك ومن حولك، وأن المؤمنين يظلون في نعيم السعادة حتى وإن تألبت عليهم الدنيا ونال منهم الضرّ والبلاء. واسمع قول ربّ العالمين: ﴿من عمل صالحاً من ذكر وأنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾.

إن خير ما أختم به كتابي هذا، أن أُقدّم إليك ـ وأنت أخي الذي لا والله لا أريد له إلا ما أُريده لنفسي ـ هذه العبرة والنصيحة، فإن قبلتها فذلك حظك من هذا الكتاب وهو حظي من كل ما قدّمت وإن لم تقبل فلا أملك إلا أن أتجه إلى الله العليّ القدير أستمنحه الرحمة لي ولك وأسأله لنا جميعاً الهداية إلى الحق والتجافي عن الباطل.

وحسبي الله ونِعمَ الوكيل، وإليه المنقلب والمآب وهو وحده نِعمَ المولى ونعمَ النصير.

محمد سعيد رمضان البوطي

دمشق في ١ ذي الحجة ١٣٨٧ هـ
الموافق لـ ٤ كانون الأول ١٩٦٨ م